عائلة الملك خوفو

تاريخ وأسرار الأسرة الرابعة

(الدولة القديمة)

زاهي حواس

الدار المصرية اللبنانية

عائلة المليك خوفو

تاريخ وأسرار الأسرة الرابعة

(الدولة القديمة)

زاهي حواس

الدار المصرية اللبنانية

حواس ، زاهي .
عائلة الملك خوفو : تاريخ وأسرار الأسرة الرابعة الدولة القديمة / زاهي حواس
.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009
272 ص ؛ 28 سم
تدمك : 3 ـ 490 ـ 427 ـ 977
1 ـ مصر القديمة ـ تاريخ ـ الدولة القديمة (3400 ـ 2260 ق.م)
2 ـ مصر القديمة ـ تاريخ
أ ـ العنوان 932 , 03

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 9787 / 2009

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : جمادى الأولى 1430هـ ـ مايو 2009م

إخراج : حسين الشحات
تصميم : خالد الناقه

إهداء إلى صديق العمر

الفنان المبدع أحمد رجب

زاهي حواس

شكر وعرفان

أود أن أشكر كل من ساهم في إنجاز هذا العمل، فأبدأ بشكر من ساعدوني في حفائري لمقابر بناة الأهرام بالجيزة، ذلك العمل الذي فتح نافذة جديدة على تاريخ الدولة القديمة، حيث أشكر أ. منصور بريك الذي كان بمثابة ذراعي اليمنى بتلك الحفائر ومعي د. محمود عفيفي وغيرهما ممن ساعدوني في هذا الموقع.

كما أود أن أشكر من ساعدوني بمكتبي ومنهم مساعدي د. طارق العوضي وأ. محمد مجاهد وأ.شريف شعبان، لدورهم الكبير في متابعة تصميم الكتاب ومراحل إخراجه.

كما أتوجه بالشكر للفنان الشاب حسين الشحات والأستاذ خالد الناقة على ما بذلاه من جهد في تصميم وإخراج هذا المؤلف في صورة فنية بديعة.

وأود توجيه شكر خاص للسيد محمد رشاد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية اللبنانية على مجهوده الشاق في متابعة كل مراحل العمل للكتاب الذي يعتبر كتابًا فريدًا من نوعه باللغة العربية؛ حيث إن تاريخ الأسرة الرابعة لم يعرض في كتاب للجمهور من قبل.

المقدمة

نحن في عام 2609 قبل ميلاد السيد المسيح.. حيث نعود عبر رمال الزمن لنتمكن من رؤية ذلك الملك الجديد خوفو مصحوباً بكبير مهندسيه المدعو حم إيونو، وهما واقفان على هضبة الجيزة الخاوية.. حيث وقفا على بعد بسيط من الحاشية الملكية التي تصحبهما أينما كانا وقد نظرا إلى الأفق المحيط بهما.. نظرا ناحية الغرب عبر الأفق حيث تموت الشمس كل ليلة، ويظهر اللمعان الذهبي للصحراء المليئة بحيوانات الصيد.. ونظرا ناحية الجنوب حيث الهرم المدرج للملك زوسر، الذي حكم طيلة ثلاثة أرباع القرن في عصر البناء بالحجارة.. وإلى الجنوب أكثر توجد ثلاثة أهرامات بناها والد الملك خوفو.. الملك العظيم سنفرو....

وعند طرف الهضبة ناحية الشرق.. يوجد شريط رفيع من الصحراء يحد سهل الفيضان الأخضر.. يليها صفحة النيل الزرقاء.. وعلى بعد مسافة ما يوجد الأفق الشرقي حيث تولد الشمس كل صباح.. هذا هو الموقع المثالي.. حيث حدده خوفو لإقامة هرمه الذي سيبنى خلال عقدين من الزمان.. وكان صخر الأساس من الحجر الجيري الجيد الصلب المغطى بطبقة رقيقة من الرمال التي تهب من الغرب. وعلى بعد مئات الأمتار ناحية الجنوب يوجد محجر مناسب يمكن الحصول منه على أحجار لبناء هرمه.. في حين أن نهر النيل على مقربة من حافة الهضبة مما يسهل جلب المواد عبر مراكب، من خلال قنوات وموانئ يتم بناءها. هذا الهرم سيكون أكبر هرم على الإطلاق والذي سيبقى للأبد.. ذلك الجبل الحجري الذي بني ليؤكد الحفاظ على ذكراه وحمايته لنظام الكون المصري..

كما أن سهل الفيضان يعد أيضاً مكاناً مناسباً لبناء قصره ومدينة إدارته.. أما العمال والمشرفون فقد سكنوا ناحية الجنوب الشرقي قرب المقبرة الوحيدة الضخمة بالهضبة المبنية من الطوب اللبن والخاصة بأحد أسلاف خوفو. وهناك أيضاً مكان قد خصص لبناء هرم لابنه وربما هرم لحفيده.. ذلك المكان الذي سيقضي فيه خوفو أبديته..

إن ما سبق بالطبع هو سيناريو تخيلي لما يمكن أن يكون قد حدث بالفعل، فلا نعرف بالضبط كيف ومتى جاء خوفو إلى الجيزة واختار مقره الأبدي؟ ولا نعرف من كان بصحبته أو أنه نفسه قد تجول في هذا الموقع؟ حيث إنه من المحتمل أن يكون جالساً داخل محفة محمولة أينما ذهب. ولا نعرف تحديداً كم كان عمره عندما أصبح ملكاً، وإن كان يمكن أن نضع احتمالات ناجحة لذلك. ولا نعرف أيضاً كيف كان شكله؛ حيث إن صورته الوحيدة لدينا هي تمثال عاجي صغير. إلا أننا نعرف الكثير حول العالم الذي قد عاش فيه (رغم أنه يجب علينا عرض كل ما نعثر عليه عبر ستار الزمن)، كما أننا نقوم باكتشاف الكثير من خلال عمليات حفائر مثيرة تتم بالجيزة، وقد عرفنا أسماء وألقاب العديد من أفراد عائلته وهؤلاء الذين عاشوا في بلاطه. كما نعرف نظامه الإداري الذي أسسه وكيفية عمل حكومته، وعرفنا كيف بُنِيَ هرم خوفو ولماذا، كما نقوم بالكشف عن هؤلاء الذين قاموا بنقل تلك الكتل الحجرية الضخمة إلى هذا المكان.

وقد أذهلت أهرام الجيزة البشرية طيلة آلاف السنين منذ أن بُنِيَتْ، كما أن هرم خوفو نفسه يعد أشهر أثر في العالم، حيث زاره ودرسه وقام بقياسه وصوره عديد من العلماء على مدار قرون. وهناك عدد مهول من النظريات حول طريقة بنائه ووظيفته، حيث ظل طيلة آلاف الأعوام رمزاً للاستقرار والبقاء والسحر. أما أبو الهول الذي نقره الملك خفرع بصخرة بارزة بالصحراء السفلية شرقي الهضبة، فيحمل كمًّا هائلاً من التخمينات حوله، كما أنه محاط باهتمام علمي بالغ.

وقد تعرضت المجموعات الهرمية بالجيزة وعقائدها للإهمال في بعض الأحيان بعد 500 عام من بنائها، حيث تعرضت المقابر الملكية نفسها للسرقة على يد لصوص محترفين، وإن كنا لا نعرف متى حدث ذلك تحديداً، كما تعرضت معابد الأهرامات للاعتداء، حيث اقتلعت النقوش من على الجدران، وحطم عديدًا من التماثيل بغرض استغلالها في أغراض متأخرة.

■ تمثال الملك خوفو- عاج- المتحف المصري.

وقد اكتشفنا مؤخراً تمثالاً غير كامل للملك رمسيس الثاني (1304–1237 ق.م) منحوتًا من كتلة واحدة من الجرانيت التي كانت ضمن كساء المجموعة الهرمية للملك منكاورع. لذا، فقد استخدمت الأهرام كمحاجر على يد الخلفاء الذين استمروا في سرقة أحجارها طيلة آلاف السنين.

وكانت الأهرام خاصة أبو الهول* محور عديد من العقائد خلال أواخر العصور الفرعونية. فقد أقام الملك أمنحتب الثاني (1459–1419 ق.م) معبداً بمنطقة أبو الهول على أرضية مرتفعة ناحية الشمال، أما ابنه الملك تحتمس الرابع الذي كان يروج ادعاءات للوصول إلى العرش، فأقام لوحة (مقطوعة من حجر أحد المعابد الأصلية بالجيزة) بين قدمي أبو الهول الأمامية، ذكر فيها قصته عندما كان أميراً شابًّا إبان رحلة صيد بالصحراء، وراح في سبات تحت ظلال هذا

■ الصورة:(أهرامات الجيزة أوائل القرن العشرين عندما كانت مياه فيضان النيل تصل لحدود الهضبة.)

*سوف يلاحظ القارئ أن اسم (أبو الهول) وغيره من الأسماء مثل (أبو التاريخ)، و(أبو رواش) جاءت هكذا في جميع أحوالها الإعرابية، دون تغيير في شكلها.. حيث إنها علم محكى، ينطق ويكتب هكذا دون تغيير في كلمة أبو.

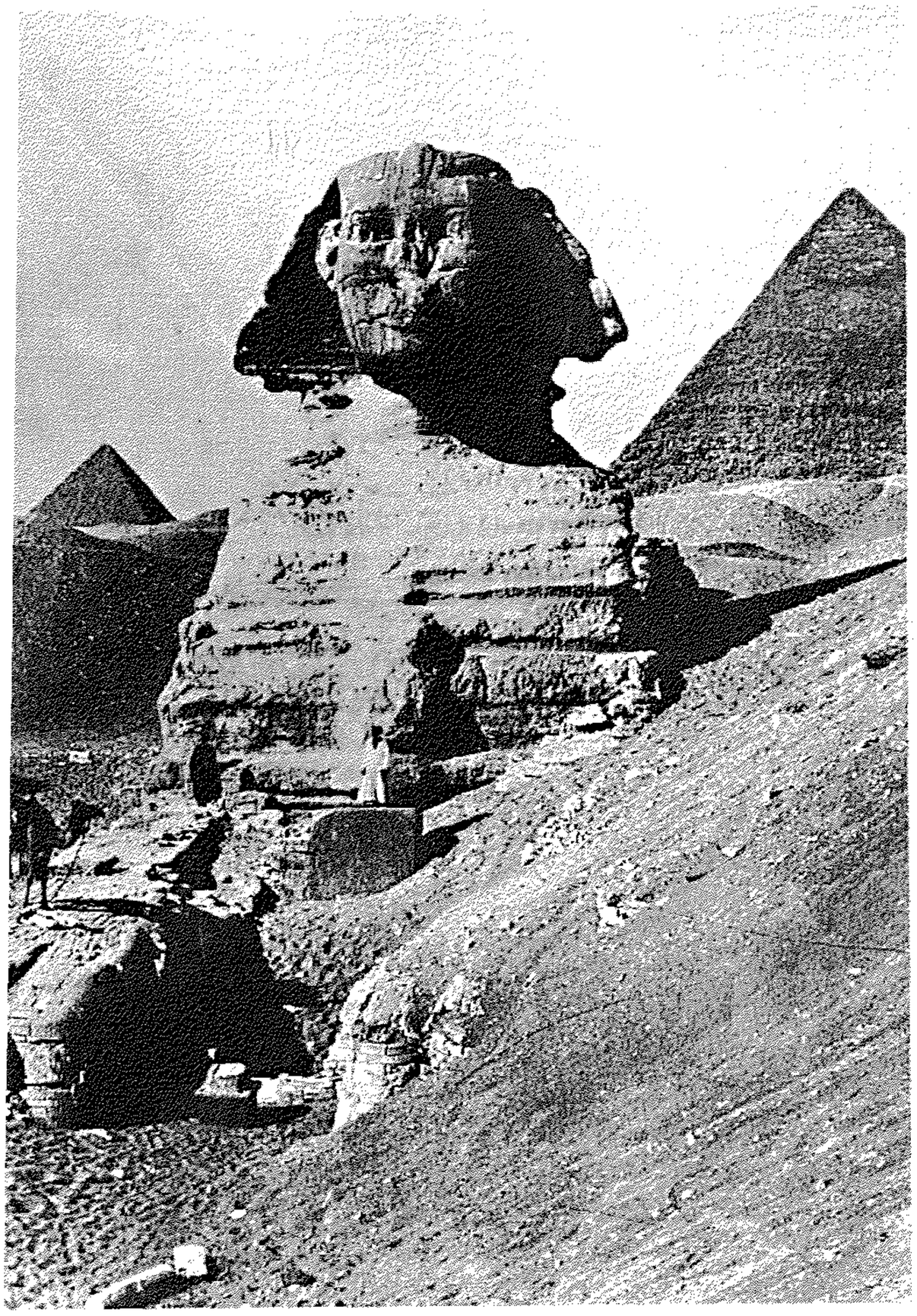

التمثال الرهيب رمز الملكية القوية عبر التاريخ المصري.

جاءه أبو الهول في منامه راجياً الأمير بأن يزيح الرمال التي تغطيه حتى عنقه وفي المقابل وعده بعرش مصر، وقد حافظ كل من الأمير وأبو الهول على وعديهما، حيث قام تحتمس الرابع بإزالة الرمال من على جسد أبو الهول وفي المقابل أصبح ملكاً. وخلال الأسرة 26 (664–525 ق.م) تم إحياء العقائد الملكية عندما ظهر كهنة لطقوس الأهرام، كما ظهرت عقيدة حيوية لأبو الهول نفسه.

أما الرحالة هيرودوت الذي يسمى "أبو التاريخ"، فقد زار الجيزة خلال القرن الخامس ق.م وعاد إلى وطنه حاملاً كافة أنواع القصص الخرافية، فقد صوَّر الملكَ خوفو بأنه حاكم طاغية عديم الرحمة، استخدم رعاياه كالعبيد حتى أنه قد أرغم ابنته على العمل في مجال البغاء! وفي العصر الروماني (30 ق.م حتى القرن الرابع الميلادي)، أصبحت منطقة الجيزة منطقة جذب سياحى، حيث زارها المؤرخ اليهودي يوسيفوس، وكتب في القرن الأول الميلادي أول خرافة تتعلق بأن العبيد اليهود قد أجبروا على بناء الأهرام!

ومع نهاية القرن الرابع الميلادي، لم يوجد هناك أي شخص قادر على قراءة الهيروغليفية؛ حيث انتشرت وتزايدت الأساطير والخرافات حول تلك الآثار الرهيبة. وقد ظهرت فكرة تصميم الهرم الأكبر ليحافظ على المعادن من الصدأ والتي امتدت لتشمل أساليب سحرية لأول مرة على يد المؤرخ العربي المقريزي بالقرن الخامس عشر الميلادي، وانتشرت بعد ذلك إشاعات قوة الأهرام Pyramids Power، والتي تعني أن الهرم يحفظ اللحم ويعيد لشفرات الحلاقة حدتها. (وقد قمت بتجربتي الشخصية حول هذا الأمر، وذلك بوضع قطعة من اللحم النيئ على رف كتب بمكتبي بالجيزة وأخرى داخل حجرة الدفن بهرم خوفو، وللأسف كانت النتيجة هي فساد

■ تمثال أبو الهول العظيم أوائل القرن العشرين.

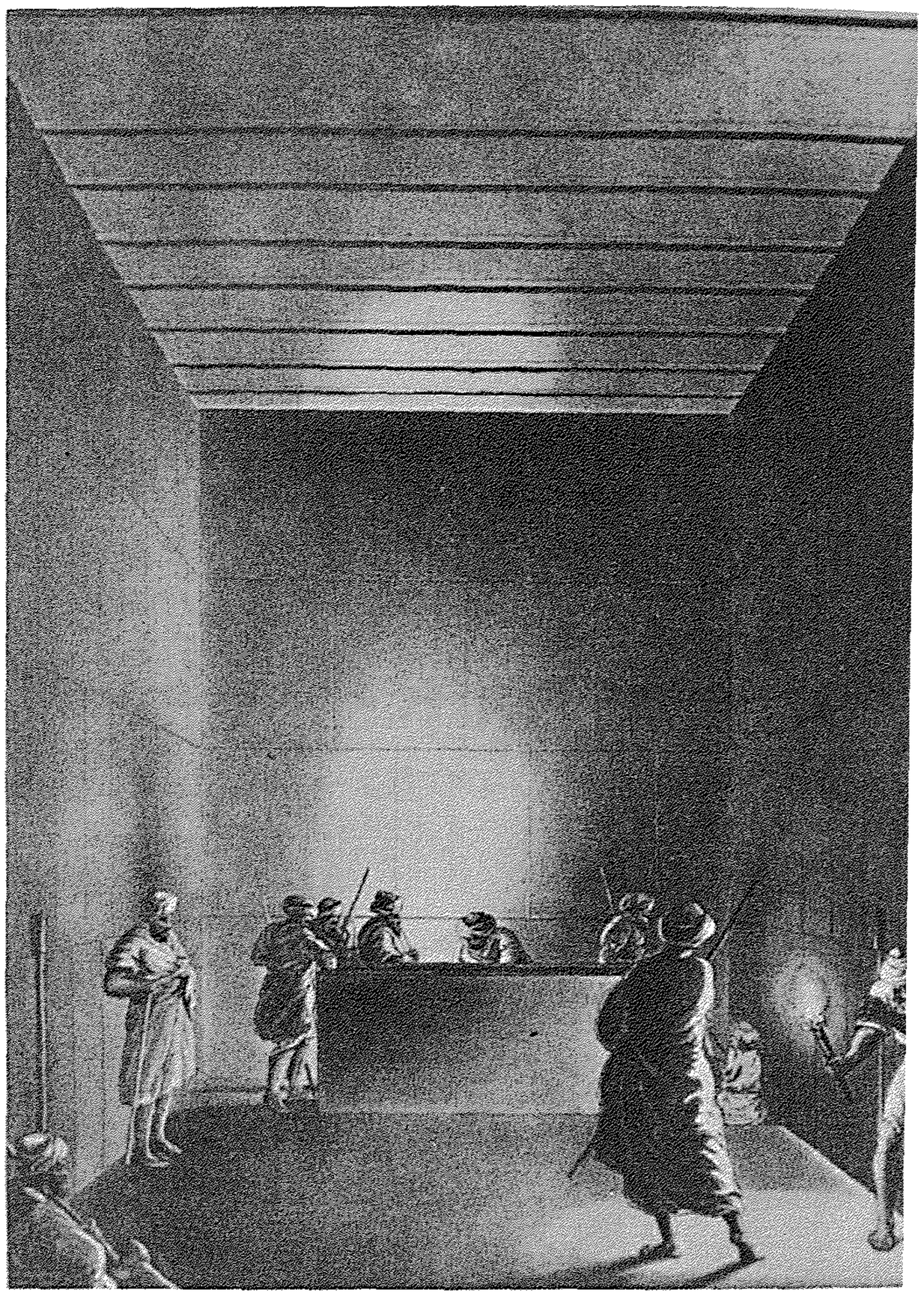

كلتا القطعتين في نفس الفترة، وهو ما كلفني مدة أسبوعين للتخلص من رائحة اللحم العفن من المكتب. ولن أعيد تلك التجربة مرة أخرى)، لكنها تثبت أن كل هذا ما هو إلا خرافات، ولو كان للأهرام قوة لما قاموا بالتحنيط منذ الأسرة الأولى.

وقد قام الخليفة المأمون بفتح الهرم الأكبر لأول مرة وذلك في عام 820 م، حيث اضطر هو ورجاله لفتح مدخل آخر أسفل المدخل الأصلي للهرم على الجانب الشمالي والذي أغلق وأُخْفِي نهائيًّا على يد بناة الهرم. ولا نعلم على وجه التحديد ما الذي عثر عليه رجال الخليفة داخل الهرم؛ حيث إن أهم ما وجدوه كان عبارة عن بعض العظام المحطمة داخل التابوت الجرانيتي لخوفو، فيبدو أن بعض اللصوص القدامى قد قاموا بسرقة الكنوز المدفونة مع الملك. وعلى الرغم من كون تلك العظام اكتشافًا عظيمًا بالنسبة لعلماء الآثار الآن، إلا أنها لم تكن ذات أية قيمة بالمرة من قبل رجال الخليفة مما أدى إلى إهمالها.

ويختلف شكل الأهرام الثلاثة التي كانت مكسوة بأحجار تمنحها الشكل المصقول عما يمكن أن نراه الآن، حيث كانت تلك الأحجار محفوظة خلال القرن 12م، ولكن مدينة القاهرة الحديثة كانت في حاجة شديدة لمواد بناء، مما أدى إلى اقتلاع تلك الأحجار من على الأهرام والمعابد واستمر هذا النهب المنظم منذ تلك الفترة حتى أواخر القرن 19م. وقد عثر على عديد من الأحجار التي تحمل اسم خوفو بين أحجار القاهرة القديمة.

وقد بدأ الزوار الأوروبيون بوضع مصر ضمن رحلاتهم إبان القرن الثاني عشر الميلادي، وعبر خمسة قرون جاءت وفود متعددة إلى مصر لرؤية الأهرام وأبو الهول. وعاد الكثير منهم إلى بلاده، وكتبوا مذكرات مصحوبة في

■ منظر تخيلي لجنود الخليفة المأمون داخل حجرة دفن الملك خوفو.

بعض الأحيان بصور مغلوطة حول الآثار.

وكان أول عالم معاصر قام بزيارة الجيزة هو العالم جون جريفز John Greaves، الذي كان أستاذ الفلك بجامعة أكسفورد في منتصف القرن 17م، حيث قام بعمل مجموعة من القياسات الدقيقة ووصف تفصيلي، وتوصل بناءً على دراساته للمصادر الكلاسيكية إلى أن الأهرام قد بُنِيَتْ بغرض البقاء الأبدي لأرواح الملوك خوفو وخفرع ومنكاورع. أما بنوا دي ميليه Benoît de Maillet قنصل فرنسا العام في مصر ما بين عامي 1692–1708م، فكان مولعاً بالأهرام وقام بعمل رسومات رائعة لممرات وحجرات الهرم الأكبر.

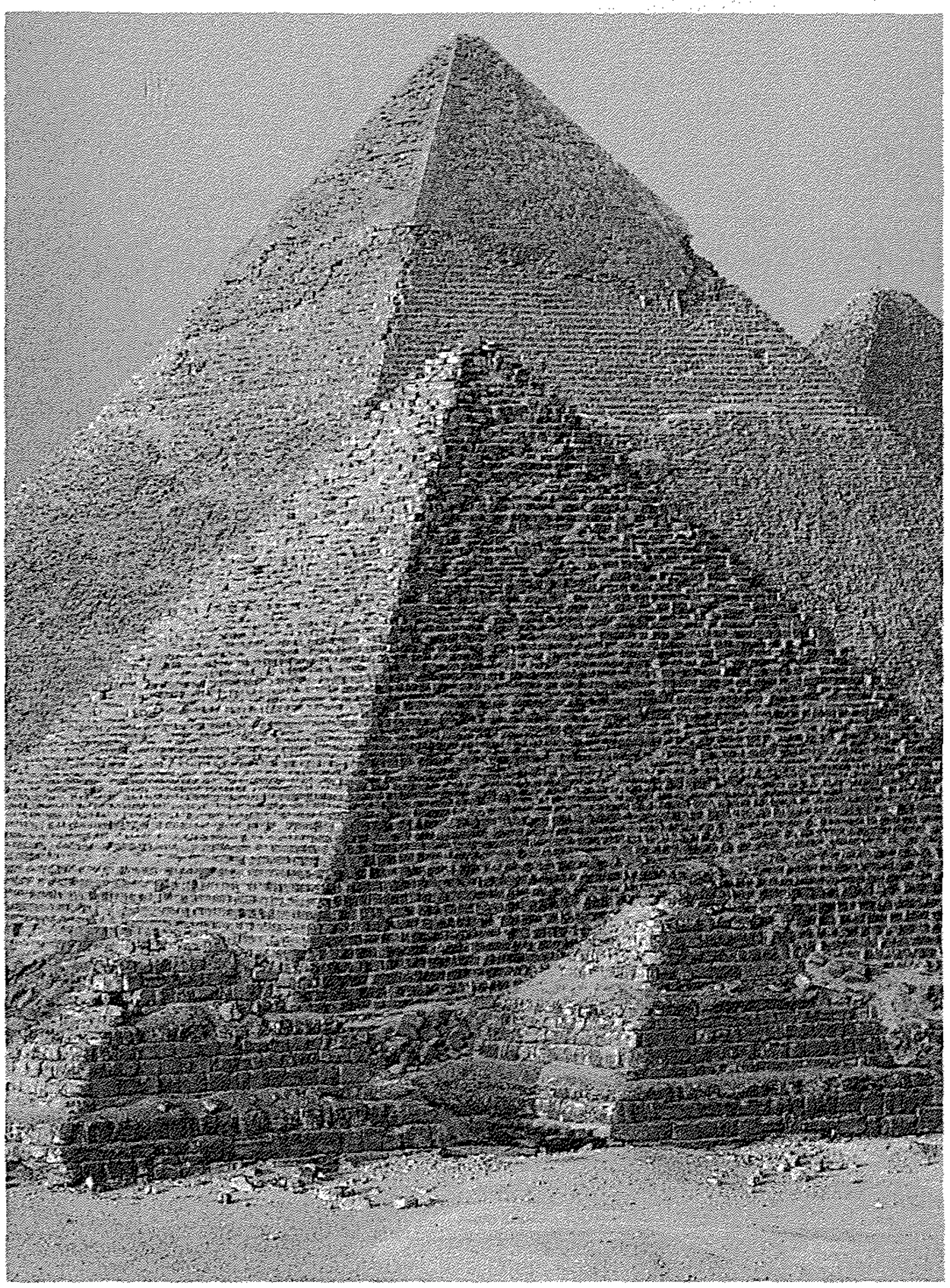

وشهد القرن التالي توافداً كبيراً للرحالة الذين قاموا بتسجيل الآثار التي زاروها. ولم يكن أغلب وصفهم دقيقًا كما كانت رسوماتهم غير متقنة، إلا أن ما تركوه من تسجيلات يعد ذا قيمة عالية، كما أنها تمدنا بمعلومات عن بعض التفاصيل التي اختفت حالياً.

وقد بدأ علم المصريات في تثبيت خطى جديدة مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، بقيادة نابليون بونابرت الذي أحضر معه فريقًا من العلماء مكونًا من 150 عالمًا وباحثًا، حيث أمضى ذلك الفريق قرابة 3 سنوات في تسجيل كل شيء بما فيها الآثار القديمة الموجودة، وأصدروا كتاباً رائعاً مقسمًا إلى عدد كبير من المجلدات يعرف باسم وصف مصر Description de L'Egypte.

وقد أدت الحملة الفرنسية إلى الاهتمام الشديد بمصر القديمة، وهو ما كان له أثره الإيجابي في الزيادة الملحوظة

■ أهرامات الجيزة.

لعدد العلماء الذين كرسوا أنفسهم لدراسة الثقافة القديمة، ومن بين هؤلاء العلماء الفرنسي جان فرانسوا شامبليون Jean-François Champollion، الذي أعاد الكتابات الهيروغليفية إلى الحياة في عام 1822م. أما الجانب السلبي فتمثل في ظهور جامعي التحف سواء بشكل خاص أو بتمويل من متاحف، والذين أصابهم نهم الحصول على التحف وسرقة الآثار القديمة. وقد تدفقت موجة مستمرة من التدمير عملت على سرقة كل من التماثيل والمومياوات والنقوش من المقابر وأي شيء يمكن شحنه على ظهر سفينة، كي ينقل إلى أوروبا، وكان "المكتشفون" الذين ينقلون تلك القطع إلى بلادهم، والذين دمروا أدلة مهمة من خلال نقلها من بيئتها الأصلية، هم أنفسهم العلماء المسئولون عن دراستها والعمل على حمايتها.

ومنذ ميلاده، فقد اقترن علم المصريات بقرين سوء نطلق عليه تهذباً علم الأهرام. فقد بدأت الخرافات والعلوم المزيفة في الظهور مصحوبة بنظريات جذابة والتي بنيت في بعض الأحيان على المصادفة، التي تعمل على تفسير الأهرام. وقد ظهرت أولى تلك النظريات على يد جون تايلور John Taylor في عام 1859م، والذي ادعى أن الهرم الأكبر هو "تسجيل لقياس الأرض"، كما اعتقد أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى قيمة النسبة الثابتة المعروفة باسم pi. وتبعه آخر يدعى تشارلز بيازي سميث Charles Piazzi Smyth الذي اعتقد أن الهرم الأكبر هو نموذج قياس لمحيط الأرض، والذي بني باستخدام مقياس يدعى "البوصة الهرمية"، كما اعتقد أيضاً أن الحجرات الداخلية للهرم تتضمن رسائل تحمل تنبوءات مستقبلية تركتها القبيلة المفقودة لإسرائيل.

■ جان فرانسوا شامبليون مكتشف أسرار اللغة المصرية القديمة.

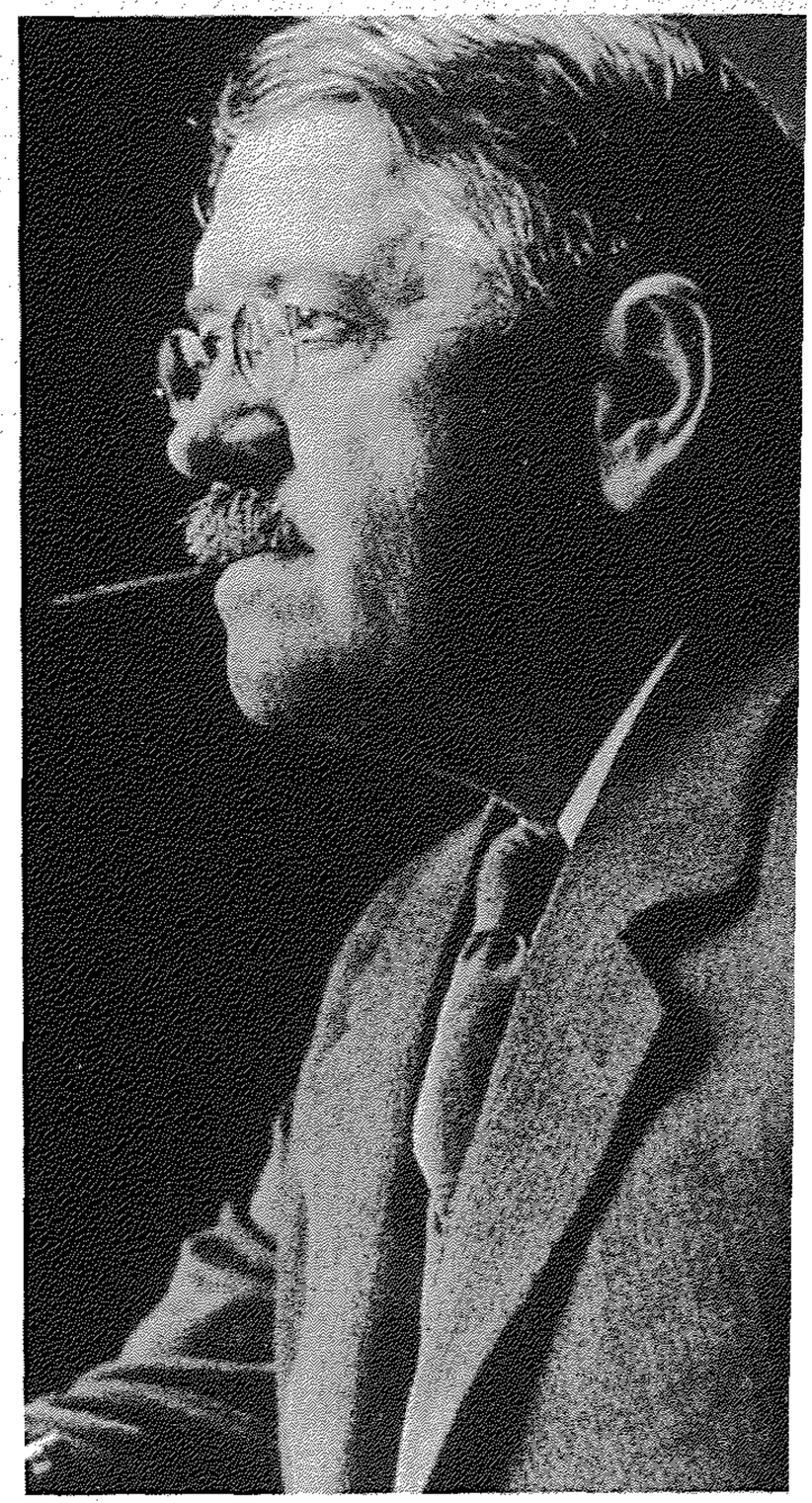

وكان أحد أتباع سميث شابًّا يدعى وليام فلندرز بتري W.F.Petrie الذي حضر إلى الجيزة في عام 1880م، حيث قام بإعادة قياس الهرم الأكبر. وقد أثبتت أعماله الدقيقة عكس نظريات سميث دون أدنى شك، تاركاً مجال علم الأهرام معتنقاً علم المصريات. وقد قام بحفائر علمية ضخمة محاولاً إصدار منهج علمي جديد الذي شكَّل أسس علم الآثار. ومازالت دراساته المتميزة حول أهرام الجيزة مستخدمة حتى الآن.

وقد تبع بتري بالجيزة عدد من الحفائر العلمية أشهرها الأمريكية بقيادة جورج رايزنر George Reisner والألمانية والنمساوية بقيادة كل من اوفو هوشلر Uvo Höschler، وجورج شتايندورف George Steindorff، وهرمان يونكر Herman Junker، بالإضافة إلى المصرية بقيادة سليم حسن، حيث قام هؤلاء الرجال بعمليات اكتشاف للأهرام الثلاثة ومعابدها وعديد من مقابر الموظفين والكهنة المحيطة بها.

وأنا في غاية الفخر بأن أكون وريثاً لهؤلاء الأثريين العظماء؛ حيث عملت بالجيزة منذ عام 1987م وقمت بالعديد من الاكتشافات المذهلة. وكانت أغلب تلك الاكتشافات ناتجة من برنامج إدارة المواقع. ومن أهم الإنجازات التي أفتخر بها هو مشروع ترميم أبو الهول، والذي امتد طيلة عقد من الزمان لترميم وحماية أبو الهول العظيم، حيث انتهينا منه في عام 1997م.

وقد عمل معي صديقي الأثري الأمريكي مارك لينر Mark Lener، وعبر موسم العشر سنوات الماضية بدأت في الكشف عن بقايا مقابر بناة الأهرام؛ مسلطين ضوءًا جديدًا على تاريخ الدولة القديمة. وأقوم الآن بالحفر بجبانات العمال ومشرفيهم والفنانين وصغار الموظفين الذين اشتركوا في الأعمال الملكية. وأود أن أشير إلى أن هؤلاء لم يكونوا عبيداً، فقد كانوا من عامة شعب مصر الذين اشتركوا طواعية لخدمة ملوكهم المؤلهين، في حين قام لينر بالكشف عن منطقة العمل وتناول الطعام الخاصة بهؤلاء العمال، بالإضافة إلى جزء من التجمع العمالي.

■ جورج رايزنر.

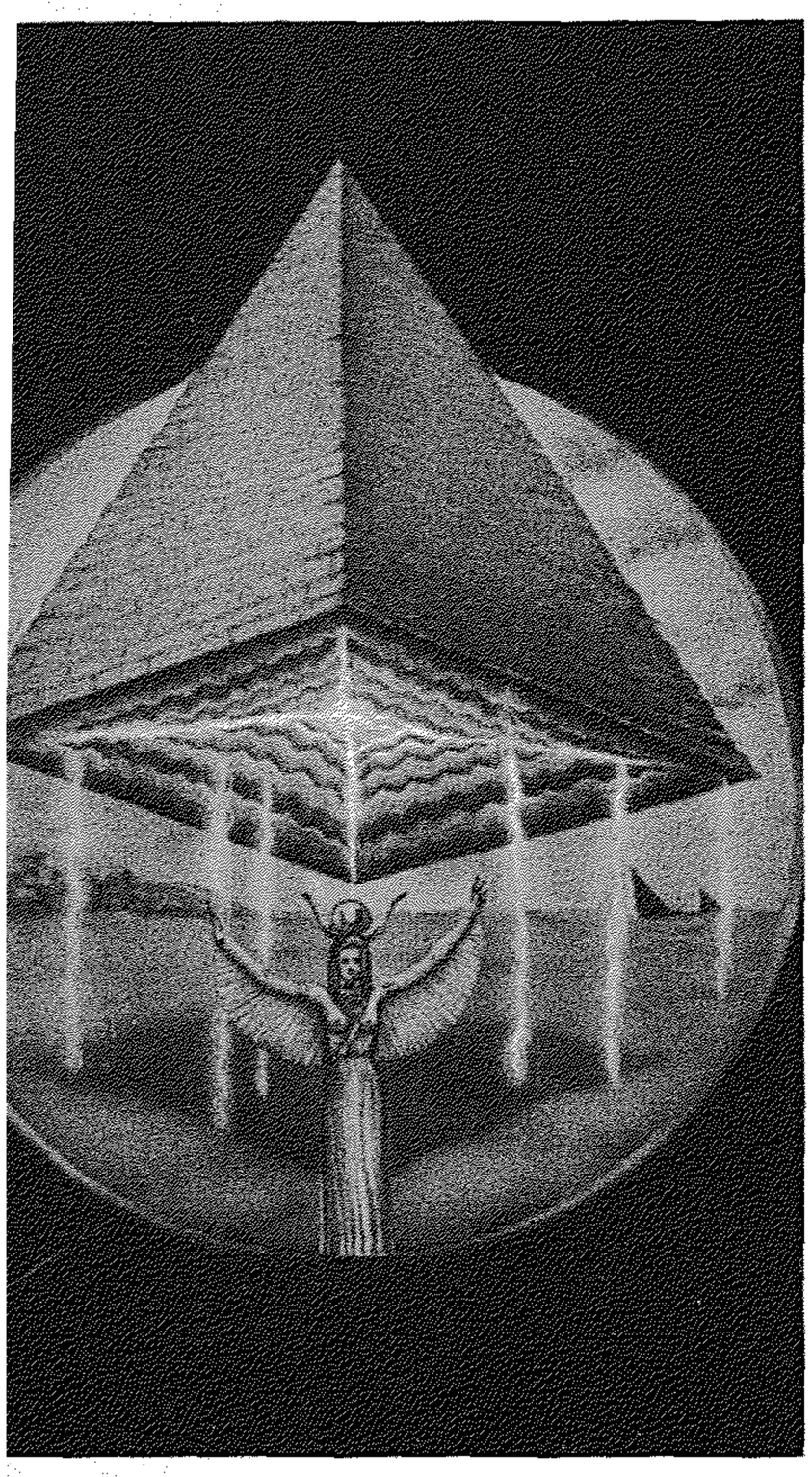

وكانت الأهرام وأبو الهول عادة ما يخرجون عن السياق الطبيعي لها، حيث يصورهم البعض بشكل يحيطه الغموض. وفي حقيقة الأمر، فإنها هي الثلاثة أهرام الوحيدة الباقية ضمن مجموعة 30 هرماً يحدون حدود الصحراء، غربي نهر النيل بالقرب من القاهرة. وكانت تلك الأهرام ذروة سلسلة من التطور الذي بدأ قبلها بمئات السنين منذ بناء مقابر ملوك مصر الأوائل وأشرافها، والتي سرعان ما تطورت خلال القرن السابق لعهد الملك خوفو.

وعندما نقوم بوضع أدلتنا مع بعضها البعض، من نصوص ومقابر ونقوش وبقايا عظام، فإنه يمكن لنا أن نرسم صورة لعالم بناة الأهرام، وإنه سيكون هناك فجوات كبيرة وأخطاء شاملة وذلك كلما وجدنا أدلة جديدة تخرج لنا من رمال مصر، إلا أن صورتنا التي كوناها متكاملة ونابضة بالحياة. وعلىَّ أن أنبه الآن إلى أن عالمنا هنا يخلو من أية كائنات فضائية أو أشخاص أسطورية جاءوا من قارة أطلانتس المجهولة. فنحن لا نستخدم هنا سوى الأدلة الحقيقية لنرسم بها صورتنا، وليس العبث الذي بنيت عليه النظريات الواهية التي ترى أن الهرم قد بني بقوى سحرية أو خارجية، فإن الأهرام بنيت على يد المصريين، الذين عاشوا بالألفية الثالثة قبل الميلاد من رجال ونساء، والذين نعثر على عظامهم تحت الرمال الآن. فقد يختلف بعض العلماء حول بعض التفاصيل، إلا أن الحقائق الأساسية لا تقبل الجدال.

ويبدأ تاريخ أهرام الجيزة بنحو ثلاثة أرباع قرن قبل تولي الملك خوفو عرش مصر. ففيما بين عامي 2687–2668 ق.م ظهر ملك يدعى "نتري خت" (الذي نعرفه باسم زوسر من الدولة الوسطى) وقام ببناء أول أثر ضخم من الحجر وهو الهرم المدرج بسقارة، وقد قام خلفاؤه باتباع سنته في البناء؛ حيث قاموا بتجارب مشابهة في البناء، إلا أن أيًّا منهم لم يعش بالقدر الكافي الذي يجعله يكمل هرمه، أو أن يحدث طفرة بنائية، حتى جاء ملك يدعى سنفرو.

وكان الملك سنفرو هو أول ملوك أسرة جديدة وهي الأسرة الرابعة. وحكم مصر لمدة 24 أو 44 عامًا على الأقل، تاركاً وراءه ثلاثة أهرام عظيمة تتضمن أول هرم حقيقي ذي جوانب مستقيمة وليست مدرجة، بالإضافة إلى هرم رابع في سيلا، يعتقد أنه كان يمثل التل الأزلي الذي خرج منه الإله الأعظم

■ منظر تخيلي لقوة الأهرامات.

لكي يخلق هذا العالم. وقد خلفه على العرش ولده خوفو الذي يعد قلب قصتنا، حيث حكم الملك خوفو البلاد في وقت كانت فيه البلاد عظيمة موحدة تحت إدارة مركزية قوية، والتي ساعدت أسلافه على بناء مشروعاتهم المعمارية المهيبة. وكان هرمه بالجيزة هو ثمرة أعمال أبيه بعد بنائه لثلاثة أهرام عظيمة، حيث تعلم المهندسون والمعماريون الكثير خلالها واستطاع الاستفادة من خبراتهم.

وقد حكم خوفو مصر لمدة 32 سنة وليس 23 سنة كما كنا نعتقد من قبل، خلفه على عرشه أحد أبنائه الملك جدف رع، الذي ترك هضبة الجيزة وأقام لنفسه هرماً صغيراً بمنطقة مجاورة تدعى أبو رواش. وقد مات هذا الملك بعد حكم دام 8 سنوات فقط تاركاً مقره الأبدي غير مكتمل. وبعده جاء الدور على الملك خفرع أحد أبناء خوفو ليتولى مسئولية البلاد، حيث عاد مرة أخرى إلى الجيزة وبنى هرمه بجوار هرم أبيه، أصغر في الحجم وإن أقيم على

■ اسم الملك خوفو داخل خرطوش.

ربوة مرتفعة تجعله يظهر وكأنه أعلى. وقد قام رجاله بنحت تمثال أبو الهول الذي يحرس الهضبة على شكل أسد رابض برأس الملك.

وقد حكم خفرع لمدة 30 عاماً، ازدادت خلالها قوة الدولة وأصبحت أكثر فاعلية. وبعده جاء ملك آخر لم يحكم سوى أربع سنوات والذي يعرف في اليونانية باسم بوخوريس (أو باكا)، وقد أسقط اسمه من معظم قوائم الملوك، وهو الأمر الذي يعد من ألغاز الدولة القديمة. وهناك احتمال تولي ابن آخر للملك خوفو يدعى جدف حور العرش وإن كان لمدة قصيرة. ويأتي بعد ذلك ملك آخرمهم وهو الملك منكاورع، ابن خفرع الذي بقي بالجيزة، وقام ببناء هرم صغير مستخدماً مواد بناء غاية في التكلفة، محاولاً تقليد ما قام به أبوه وجده وذلك على ما تبقى من مساحة بالهضبة للبناء، إلا أنه قد توفي بعد 24 عامًا من توليه العرش، وقبل أن ينهي العمل بمجموعته الهرمية، مما جعل ابنه

■ رأسي جدف رع وخفرع خلفاء الملك خوفو على حكم مصر القديمة.

■ الهرم الثاني، هرم الملك خفرع ولايزال الكساء الجيري يظهر في أعلى قمة الهرم.

وخليفته الملك شبسسكاف يقوم بإكمالها بالطوب اللبن، وانتقل بعدها إلى سقارة على بعد 9 كم (5.5 ميل) ناحية الجنوب. وحكم شبسسكاف مصر لمدة 4 أعوام فقط قام خلالها ببناء مصطبة ضخمة بدلاً من بناء هرم.

وآخر من حكم بالأسرة الرابعة ملكة تدعى خنتكاوس (2519–2513 ق.م) التي عادت إلى الجيزة وقامت ببناء مقبرة ضخمة، والتي تعد آخر ما بني من آثار عظيمة بتلك المنطقة. وبعدها هجرت الجيزة وتم اختيار مواقع أخرى لبناء الأهرام ناحية الجنوب، وإن كانت العقائد الملكية بالجيزة قد استمرت لمئات السنين بعدها.

وكانت الجيزة بمثابة قلب مصر طيلة ثلاثة أجيال، ففيها كان مقر الحكومة الملكية، وفيها قضى البلاط الملكي فترة كبيرة. وكان يتم إحضار المواد الخام والأطعمة والعمالة الرخيصة من جميع أنحاء البلاد إلى شواطئها كي تسارع في بناء المعابد الأبدية لهؤلاء الملوك المؤلهين. وتبدأ قصتنا ببلاط الملك سنفرو بميدوم، عندما ولد الملك خوفو وتعلم كيف يكون ملكاً.. وهي الأسرة التي بلغ عدد الأحجار التي استخدمت في بناء أهراماتها يوازي عدد أحجار أهرامات مصر كلها، فهي أسرة بناء عظيمة، وقد أطلق على هذه الأهرامات اسم جبال الفراعنة..

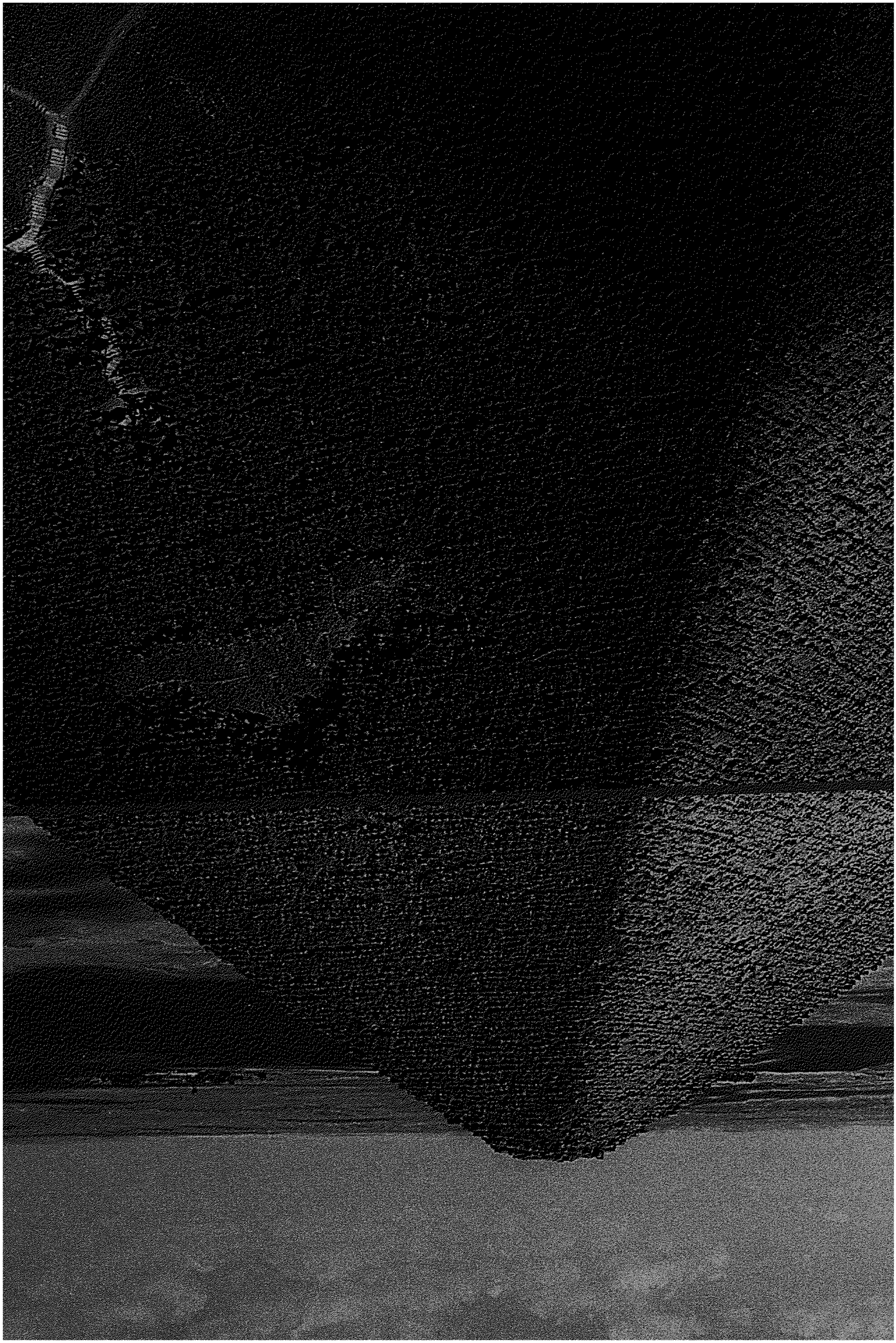

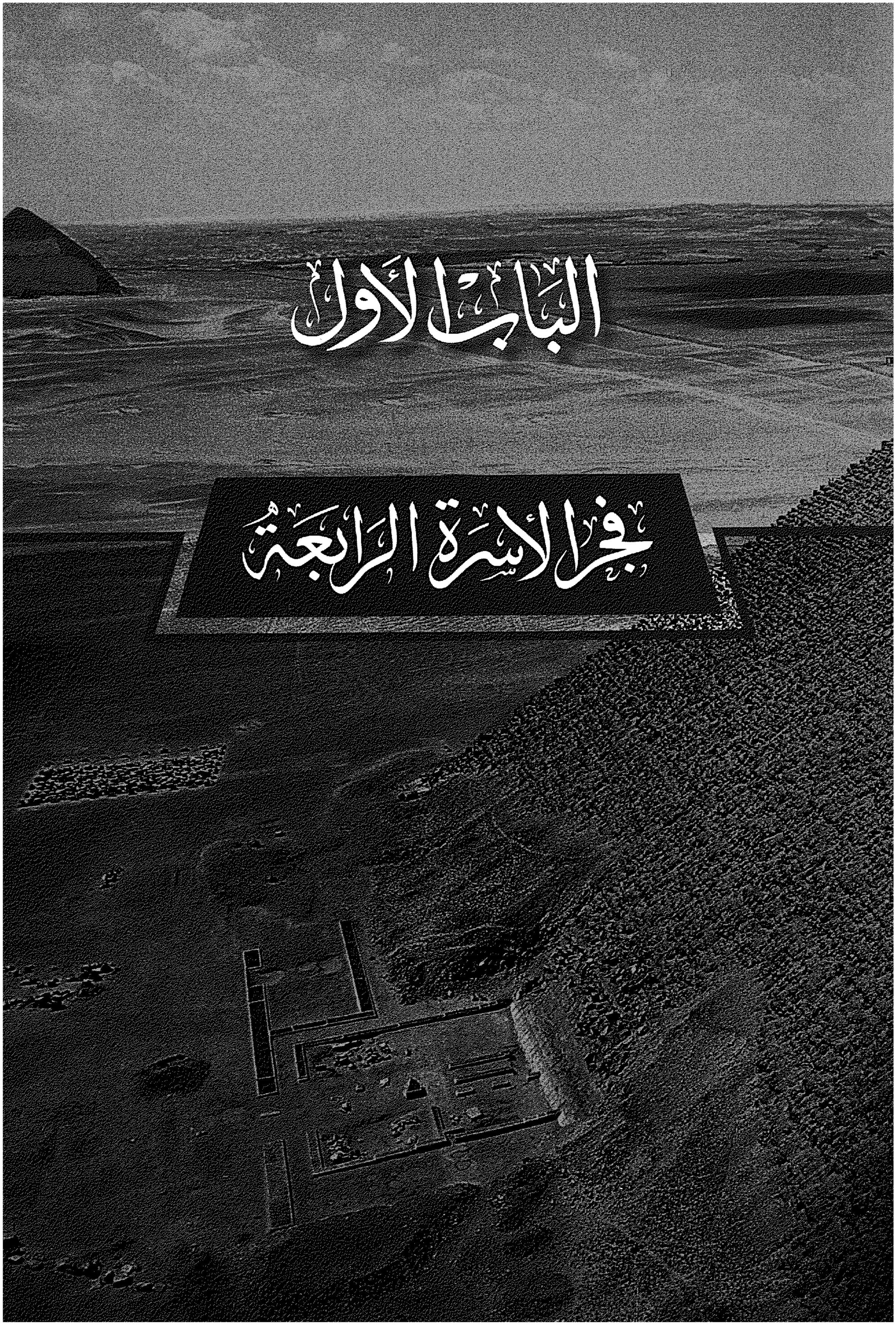
الباب الأول
في الأسرة الرابعة

الفصل الأول

عصر سنفرو

كان الملك سنفرو في حالة من الرضى.. حيث كان أخوه المدعو رع حتب، ذلك الرجل الوسيم المفعم بالحيوية ذو الشعر الأسود والشارب المنمق، قد عاد من رحلته عبر الحدود الجنوبية بالنوبة محملاً بالغنائم.. فقد قاتل النوبيين في معركة بسيطة واستسلموا دون إراقة دماء.. فكان بأس الملك المصري بمثابة أسطورة بالبلاد الأجنبية.. كما كان وصول قواته المدربة جيداً كاسرة صخر الجندل الأول بسرعة وقوة، قد بثت الرعب في قلوب الأعداء.. فقد سلم قرابة سبعة آلاف رجل وامرأة من الأصحاء أنفسهم، بالإضافة إلى قرابة ألفي رأس من الماشية الثمينة لتلك الحملة الملكية.. وقد تم تشغيل تلك العائلات في العمل لصالح الأقاليم الملكية المتناثرة أعلى وأسفل نهر النيل.. يخدمون بالمراعي الملكية والمساعدة في بناء المباني الملكية..

وكان سنفرو في غاية السعادة بأخيه الشاب الذي أمر النحاتين الملكيين بنحت تمثال فريد من الحجر الجيري له هو وزوجته الجميلة "نفرت".. فلم يكن يحلم أن يعثر الأثريون على هذين التمثالين بعد أربعة آلاف عام... أو أن أول عامل سقط بصره على هذين الوجهين الملونين المنحوتين كالحقيقة للأمير رع حتب ونفرت وعينيهما اللامعة المطعمة بالكريستال قد أصابه الرعب حتى أن قلبه توقف عن النبض..

عرف الملك سنفرو في التاريخ المصري القديم بأنه رجل حكيم وحاكم خيِّر، كما كان واحدًا من أقوى ملوك مصر القديمة والذي أسس الأسرة الرابعة العظيمة. وقد دخل في عصر من الإنجازات المذهلة وحقبة من القوة والغموض. وكان سنفرو حاكمًا نشيطًا والذي قام بإرسال بعثات حربية وتجارية للأراضي المجاورة، كما أقام مجموعة من المباني الرائعة داخل الحدود المصرية، تاركاً وراءه أربعة أهرامات. وفي العصور المتأخرة تذكره المصريون بكونه نموذجًا للملك الممتاز، وذلك عند ذكر اسمه "بتاح سنفرو"؛ أي بتاح الذي يصنع الأشياء الجميلة. وقد وصل إلى درجة عليا من الشرف حتى بعد وفاته بخمسة آلاف عام، فقد بقيت عقيدته نشطة عبر آلاف السنين.

كانت أم سنفرو الملكة مرسي عنخ زوجة الملك الراحل حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة. ومع تولى الملك سنفرو عرش مصر بدأت معه أسرة جديدة، ونحن نعتقد أن الملكة مرسي عنخ لم تكن الملكة الرئيسية لدى الملك حوني، ولكنها كانت ملكة ثانوية. أما الملكة الرئيسية فلم نعرف حتى الآن اسمها، وقد أنجبت للملك بنتًا تسمى "حتب حرس"، وهذا ما جعل سنفرو يصعد إلى العرش وإذا كان للزوجة الأساسية أي أولاد ذكور، فأغلب الظن أنهم قد ماتوا قبل وفاة أبيهم. ومن أجل ضمان عدم وجود أية مشاكل على العرش قام بالزواج من أخته حتب حرس.

ومن المعروف في مصر القديمة أن الملكات (سواء كن زوجات الملك الأساسية أو أمه أو ابنته الكبرى) مثلن جانبًا أساسيًّا في العائلة المالكة، كما كان لبعضهن السلطة والقوة في حكم البلاد. ونحن نعرف أربعًا من الملكات خلال فترات مختلفة من تاريخ مصر القديمة حكمن مصر، حتى وإن كان ذلك مغايراً للمعتقدات الملكية المصرية.

ونحن لا نستطيع فهم قواعد انتقال السلطة من ملك لآخر إبان الدولة القديمة، على الرغم من أن الوضع الطبيعي هو أن يكون الملك التالي هو الابن الأكبر للملك الحاكم من زوجته الرئيسية (وإن كان لا يوجد دليل على هذا عدا ما قام به ملوك الدولتين الوسطى والحديثة) ولا أعتقد أن الابن الأكبر دائماً ما يرث العرش، فقد عرفنا أن العديد من

■ تمثال الملك سنفرو– حجر جيري– المتحف المصري.

أبناء الملوك قد حملوا ألقاباً مهمة بالدولة ولكنهم لم يصبحوا ملوكا؛ لذا ولسبب أو لآخر، كان الابن الأكبر من زوجة ثانوية عادة ما يأتي إلى العرش عن طريق زواجه من ابنة ملكية، خاصة إن كانت ابنة من الزوجة الرئيسية.

وفي بعض الأحيان كان الملك يتزوج من أخته الشقيقة، وإن كنا لا نعرف السبب في ذلك. ويبدو أنه كان من أجل الحفاظ على قوة العائلة أو لعل فكرة زواج الأخوات كانت شائعة في العقيدة المصرية القديمة ؛ حيث قام الرب جب (إله الأرض) بالزواج من أخته الربة نوت ربة السماء، وقد أنجبا زوجين من الأبناء ؛ حيث تزوج أوزير من إيزيس، كما تزوج ست من أخته نفتيس.

وكان كل من الملكة الرئيسية والملكة الأم قد شاركتا في قدسية الملك، كما كان لهما أدوار مهمة في الحياة الدينية للبلاد. ففي الوقت الذي اتحد فيه الملك مع الهيئات الإلهية الذكورية، مثل حورس الصقر (رب السماء)، والثور (رمز الخصوبة والقوة الملكية)، كانت الملكة تعرف بالربة نخبت المصورة على شكل طائر العقاب حامية مصر

■ اسم الملك سنفرو من تمثاله – المتحف المصري.

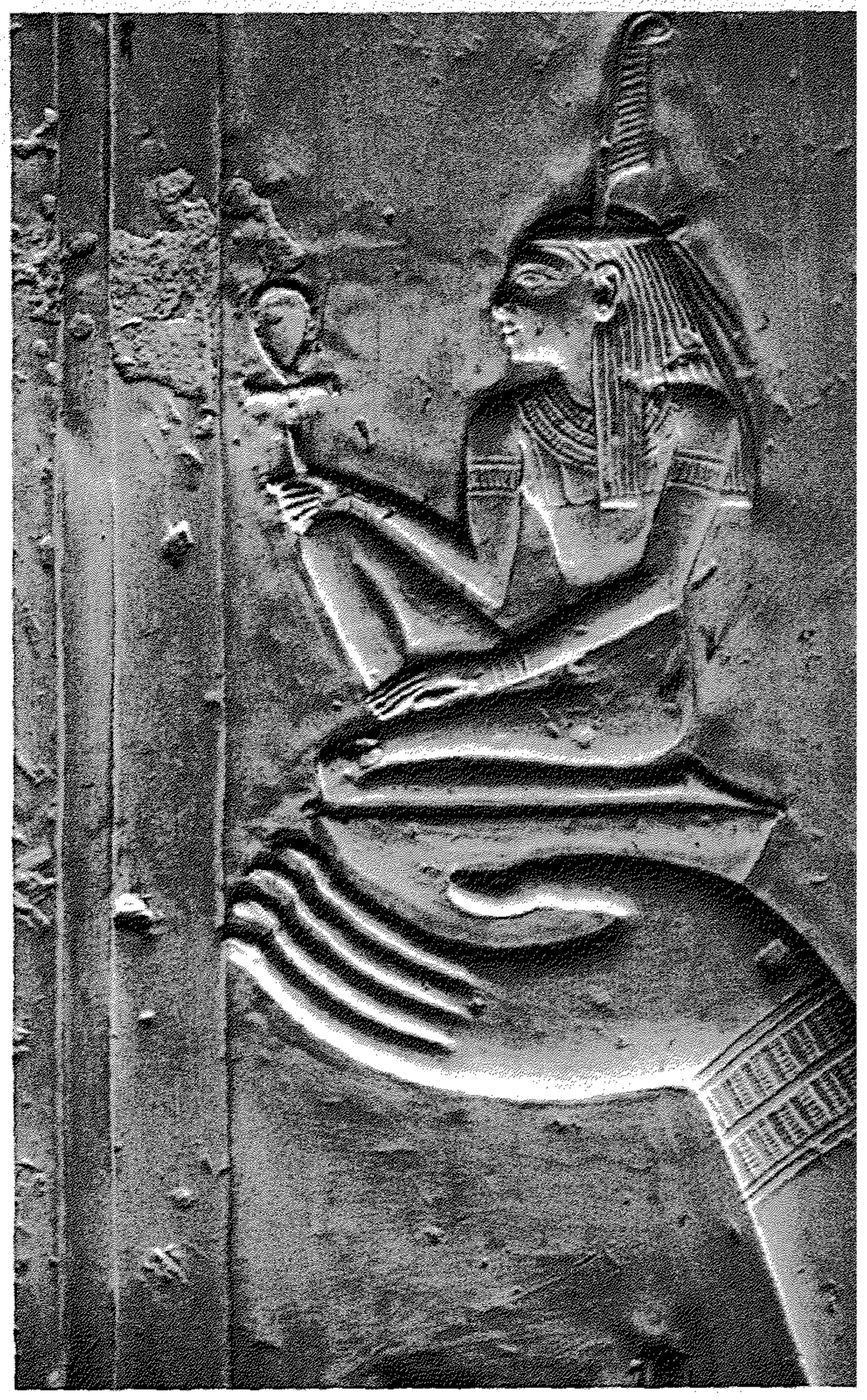

العليا، والمعبودة حتحور المصورة على شكل بقرة ابنة المعبود رع وحامية المعبود حورس؛ لذا فقد قام الملك حوني بالحفاظ على النظام الإلهي عن طريق الترتيب لزواج ابنه سنفرو بصفته الملك حورس القادم من أخته غير الشقيقة حتب حرس المجسدة للربة حتحور. وأعتقد أنه على المستوى العملي، أن ما تم كان بغرض الحفاظ على قوة العائلة.

وقد اعتلى سنفرو عرش مصر بعد موت أبيه حوني، وذلك في عام 2649 ق.م، وعندما قام بارتداء التاج المزدوج رمز الوحدة بين مصر العليا والسفلى، كانت مصر قوية وموحدة بالفعل وذات حدود مؤمَّنة وموارد ثرية، فقد شكلت الصحراء حاجزًا مريعًا بالشرق والغرب، كما كان البحر المتوسط يحمي الحدود الشمالية، أما في الجنوب فكانت الجنادل تقع حائلاً بمجرى النيل، جاعلة الإبحار عبره أمراً عسيراً، وهو ما حمى الأراضي المصرية من أخطار الغزو.

وكان دور الملك هو محور المجتمع المصري ككل؛ حيث كان العالم من وجة نظر المصريين مبنيًّا على أساس فكرة فلسفية تعرف باسم "الماعت"، التي كانت تصور على شكل ريشة أو معبودة تحمل ريشة على رأسها، وهو ما يمكن ترجمتها "الحقيقة" أو "العدالة". وكان المعنى الأوسع لكلمة الماعت هو نظام الكون، حيث كل شيء يجب أن يسير على نحو مثالي. وكان العالم المثالي لدى المصريين مكانًا للثبات، في حين كانت الفوضى والظلام والمياه اللانهائية التي تسبق وتحيط بالكون قد بقيت بعيدة على يد تجديد الخلق الأبدي. وكان هذا المفهوم قد طبق على الأرض عن طريق شروق وغروب الشمس يوميًّا، كما كان له أثره على نطاقات أضيق. وكانت خصوبةُ الأرض ثابتةً من خلال فيضان النيل السنوي؛ فقد كان يتم تجهيز الأراضي، حيث يتم حصد المحاصيل ورعاية الحيوانات ومن ثم ذبحها، في حين أن المخلوقات المتوحشة التي تعيش عند أطراف البلاد، كالحيوانات الصحراوية، والأسماك والطيور البرية، والبشر الأجانب، كانت تخضع تحت رقابة رسمية من قبل البيت الحاكم.

■ منظر لتمثال الإلهة ماعت– معبد الملك سيتي الأول– أبيدوس.

وكان على الملك المسئولية الأساسية للحفاظ على الماعت، حيث كان هذا دوره ووظيفته بصفته ممثل حورس على الأرض، وذلك للتأكيد على أن نظام العالم مستمر. وعرف أن الصقر حورس، الذي مثل على شكل صقر، كان له أهميته منذ بداية الأسرات المصرية الحاكمة، حيث هناك أسطورة مهمة – والتي أعيد تكوينها من خلال مصادر متأخرة – تخبرنا أنه خلال بداية الزمن كان حورس ابن المعبود رع وحاكم السماء، وكانت له عينان هما الشمس والقمر، وقد ظهر معبود شرير يدعى "ست" قد اقتلع عين القمر؛ لذا فكان القمر يختفي كل شهر كما لو كان قد أصيب، ثم يسطع مرة أخرى كما لو كان قد شفي. وطبقاً لأسطورة أخرى، فقد كان ست أخا أوزير، والأخير كان أول ملك على مصر. وكان ست شديد الغيرة من أخيه، حيث أقدم على قتله، وقطَّعَ جسدَه إرباً وفرقه بجميع أنحاء البلاد، واغتصب العرش. فقامت إيزيس زوجة أوزير بتجميع جسده مرة أخرى وأعادته إلى الحياة وأنجبت منه ابنها حورس. وقد قامت بتربية حورس في سرية تامة، حتى عندما اشتد عوده أخذته إلى مجمع المعبودات ليطالب بعرش

■ منظر للألهة ماعت– مقبرة الملكة نفرتاري– الأقصر.

أبيه. وبعد الكثير من الأخذ والرد وإراقة الكثير من الدماء، نجح في إعادة العرش وأصبح ملكاً على مصر، بدايةً على الجانب الشمالي (مصر السفلى)، ثم على بقية أراضي البلاد.

وكان الملك يقع في منتصف العالم الأرضي والعالم السماوي، كما كان يتشابك بين المعبودات لمصلحة شعبه. وكانت طقوس المعبد أداة مهمة للحفاظ على الماعت. وكان الملك من الناحية النظرية كبير كهنة جميع المعابد، وهو أمر ليس بالهين؛ وذلك داخل أمة لا تعرف أي تقسيم إداري أو طائفي، فكانت جميع نشاطاته الرسمية من قيادة الجيش وبناء المشروعات ورعاية البلاط والقيام بالمراسم والنشاطات المختلفة، تعد جزءًا من جهوده في الحفاظ على نظام الكون. وكان الاسم الذي اتخذه سنفرو بعد توليه العرش هو "نب ماعت" أو سيد الماعت، وهو ما يعكس اهتمامه البالغ في الحفاظ على نظام الكون.

وعلى الرغم من جغرافيتها المعزولة، إلا أنه كان لمصر منذ أوائل الدولة القديمة عديد من العلاقات مع جيرانها. فعبر الشمال الشرقي؛ حيث الساحل الذي يضم حالياً سوريا وفلسطين، كانت هناك عديد من المدن القوية

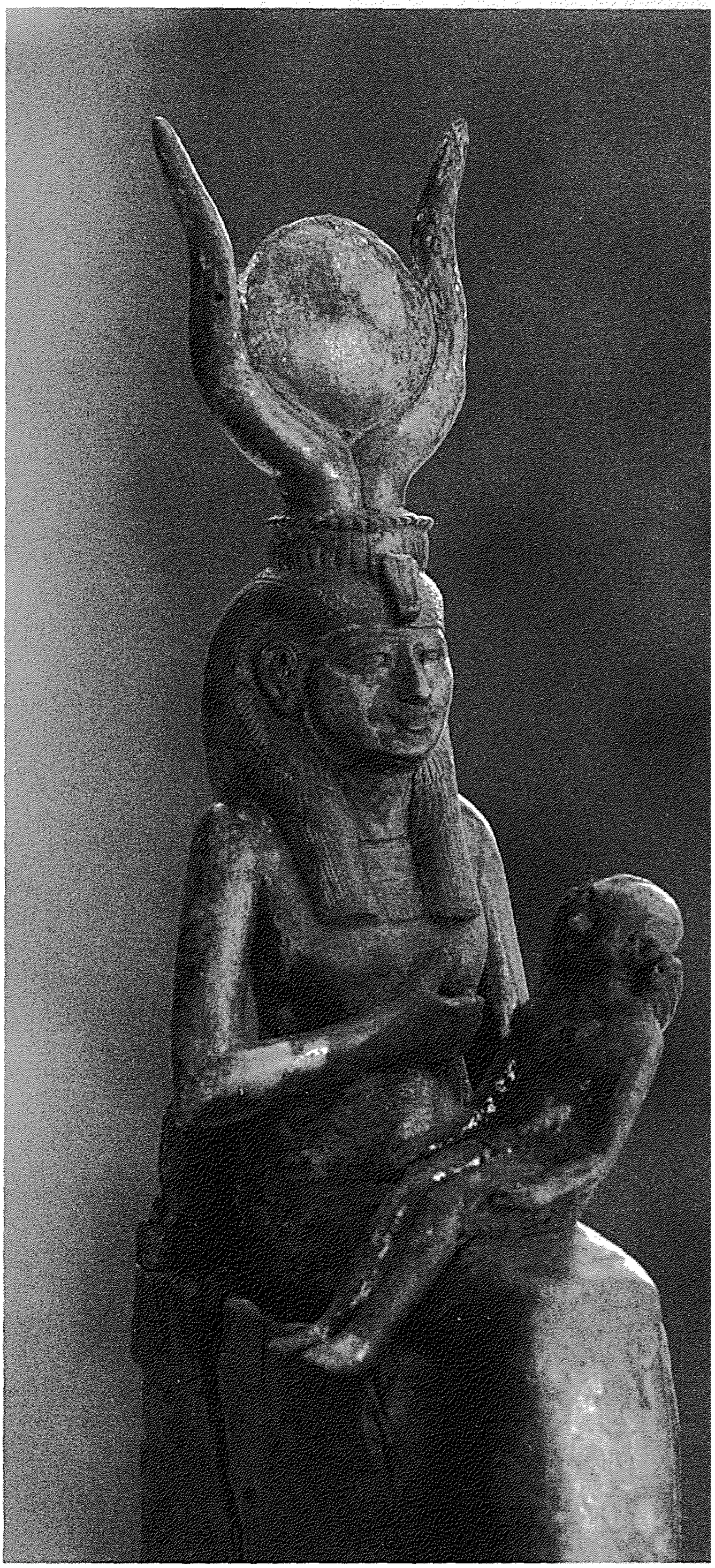

■ تمثال من البرونز للإلهة إيزيس ترضع حورس– حفائر المؤلف– متحف إيمحتب بسقارة.

المحصنة. وكانت قوافل التجارة ترتحل عبر سيناء محملة بالعديد من البضائع من "عفار"، كما أحضر المصريون الفيروز والنحاس من مناجم سيناء. أما بالغرب فكانت أرض "التحنو" أو الليبيين، وهم الأقوام الذين كان المصريون يعاملونهم كقبائل غازية تحتاج إلى التقييد.

أما الأراضي الواقعة ناحية الجنوب، فكانت تمثل اهتمامًا خاصًّا لملوك الدولة القديمة، حيث كان المصريون يحضرون منها عديدًا من البضائع الرائعة مثل الأبنوس والبخور والحيوانات الغريبة ومنتجاتها كالعاج وبيض النعام وجلد الفهد وغيرها الكثير، كما عُني المصريون بحماية طرق المواد الخام مثل الذهب من النوبة، والديوريت من مناجم الجنوب الغربي. وتحت قيادة سنفرو القوية، امتدت علاقات مصر التجارية بجيرانها وأرسلت عديدًا من الحملات العسكرية للقطاعات المجاورة.

وتأتي معلوماتنا حول بدايات حكم سنفرو من خلال لوح يطلق عليه "حجر باليرمو"، ذلك الأثر الذي يرجع لعهد الأسرة الخامسة؛ أي بعد قرابة مائتي عام، وهو يعد أقرب مصدر يمكن أن يكون معاصراً لأحداث الأسرة الرابعة. وقد قسم سطح هذا الحجر على أقسام، كل منها يحدد ملكا معينًا (بداية من أول التاريخ المصري وترجع إلى عصور ما قبل التاريخ السحيقة). وكل قسم مقسم إلى سنوات، وكل سنة تحتوي على أهم الأحداث التي جرت بها، وأسفل كل حدث تسجيل لجميع مستويات فيضان النيل المهمة. ولسوء الحظ، لم يبق من هذا الحجر المهم

■ تمثال الملك سنفرو– حجر جيري– المتحف المصري.

سوى قطع بسيطة؛ لذا فإننا قد فقدنا أغلب الملوك ومعظم السنوات. ومع ذلك، فإن القسم الخاص بحكم سنفرو محفوظٌ، وهو ما يعطينا لمحات عن بعض تفاصيل عصره.

ففي العام الـ13 قام الملك بحملة عسكرية إلى النوبة، وحيث كونها ذات تعداد سكاني قليل، أحضر من هناك قرابة 7000 أسير، و2200 رأس من الماشية، أما في العام الـ18 فقد قام الملك بحملة إلى الحدود الغربية عند ليبيا، ومن هناك استطاع إحضار قرابة 1100 أسير، و1300 رأس من الماشية. ومن أجل حماية الحدود المصرية من أعدائها، قام سنفرو ببناء سلسلة من الحصون بالجنوب والشمال، وتوجد بقايا لمدينة من الدولة القديمة بمنطقة "بوهن" بشمال النوبة، والتي على الأرجح ترجع إلى عهد الملك سنفرو، وإن لم يعثر على أية دلائل أثرية على وجود تحصينات شمالية.

أما منطقة سيناء، فقد سميت في عهد سنفرو بـ"أرض الفيروز". وتوجد هناك نقوش بمنطقة تسمى وادي المغارة بجنوب شرق سيناء، تشير إلى قيام حملات عسكرية ناحية الشمال الشرقي، وهناك نقوش بالجبال تمثل الملك وهو يمسك بمقمعة القتال ليضرب بها كبار قبائل البدو؛ كي يؤكد سيطرته على المنطقة. وقد ارتبط اسم سنفرو بسيناء حتى بعد وفاته،

■ الهرم المنحني للملك سنفرو– دهشور.

كما سُمِّي أحد المناجم بوادي المغارة باسمه. وقد عُبِدَ هناك إبان عهد الأسرة 12؛ أي بعد وفاته بـ600 عام.

و لم تكن جميع أعمال سنفرو المهمة تتعلق بالعسكرية فحسب، فقد كانت صناعة السفن أمرًا في غاية الأهمية؛ حيث كان لذلك الأسطول أهمية لمصر بسبب وجود النيل الذي يسير في أرضها، كما كان وسيلة لنقل البضائع بين مصر ومدن ساحل البحر المتوسط. ويخبرنا حجر باليرمو عن إرسال حملة لمدينة بيبلوس ذلك الميناء الحيوي على ساحل لبنان؛ لإحضار أنواع جيدة من خشب الأرز والصنوبر (حيث كانت مصر فقيرة في الأخشاب؛ كما أن أنواع الأشجار التي تنمو على أرضها كالسنط والنخيل لم تكن مناسبة لعديد من أغراض البناء) كما أن السفن التي ذهبت لإحضار الخشب من بيبلوس كانت نفسها مصنوعة من الخشب المستورد. وقد استطاع الملك صناعة مركب غاية في الضخامة من هذا الخشب المستورد من لبنان، قرابة 100 متر (328 قدمًا) في الطول، قام باستخدامها في رحلاته الملكية على النيل، كما قام في العام نفسه ببناء 60 مركبًا ملكيًّا سميت بمراكب "الستة عشر"؛ لأنها تحتوي على 16 مجدافًا، وفي العام التالي أمر سنفرو ببناء 3 مراكب أخرى ضخمة. وقد استخدم هذا الخشب الجيد المستورد أيضاً في صناعة أبواب القصر الملكي. وقد عثر على بقايا من تلك الأخشاب داخل هرم سنفرو المنحنى بدهشور.

وبالإضافة إلى تلك الحملات العسكرية والتجارية، يذكر حجر باليرمو عن ولادة اثنين من الأطفال الملكيين أو خلق صورتهما، بالإضافة إلى تأسيس 35 إقليمًا و22 ضيعة، وكانت موارد تلك الأقاليم والضياع تهدى مباشرة إلى البيت المالك؛ من أجل دعم الملك وحاشيته وتمويل المجموعات الجنائزية. وفي العام 15 من حكمه، أنشأ مبنيين في غاية الأهمية، أحدهما سمي "سمو سنفرو ذو التاج الأحمر (وهو تاج الوجه البحري)"، والآخر سمي بـ"سمو سنفرو ذو التاج الأبيض (وهو تاج الوجه القبلي)"، وهذان المبنيان لهما طبيعة مقدسة. وبالإضافة إلى ذلك، كان الملك يقوم بزيارة المقاصير القومية المهمة، وصناعة تماثيل الملك العظيمة التي كانت من المواد النفيسة كالنحاس والذهب.

الفصل الثاني

سنفرو في ميدوم

جلس سنفرو مع أخيه نفر ماعت بالقصر الجديد بميدوم.. حيث كانا يخططان لبناء هرم جديد.. الأكبر على الإطلاق حتى يصل إلى عنان السماء.. فيمكن بناؤه على شكل هرم مدرج مثل ما قام به الملوك أسلافه على غرار هرم جدهم زوسر.. وكانت قاعة العرش التي التقى بها الرجلان مزينة بالألوان ومناظر الملك التي تصوره وهو يقمع أعداءه.. كانت الثروات التي تصب في الخزانة الملكية من التجارة والحملات العسكرية قد مكنت الملك من بناء هرم مهول، أكبر وأجود من أي هرم بناه أسلافه.. وكان الملك المفعم بالحيوية والأفكار، قد جلس يتناقش مع أخيه الذي حمل لقب الوزير وكبير المهندسين حول تفاصيل العمليات الهندسية، ورسوم الخرائط على لفافات البردي التي كان يضعها على حجره..

سجل حجر باليرمو معلومات مهمة عن تلك الفترة، هذا ونحن نعرف الآن أنه ينسب للملك سنفرو بناء أربعة أهرامات، فقد ذكر عملية تقطيع ونقل كتل الأحجار الصلبة من أجل بناء تلك الأهرام، بالإضافة إلى الموارد والعمال المطلوبين لإنجاز تلك الأعمال وهو ما يدل على قوة سنفرو، كما يمكن لنا أن نلاحظ مدى ثراء الدولة من خلال الأثاث الجنائزي الخاص بالملكة حتب حرس، الذي عثر عليه بقاع بئر دفن بالقرب من هرم ابنها خوفو، وقد احتوى البئر على مجموعة في غاية الروعة من الكنوز، جاء بعضها من الخشب الملون ومجوهرات منها 20 قلادة فضية مطعمة باللازورد والفيروز.

ولا نعرف أين كان بلاط الملك حوني، ولكن سنفرو كان قد أقام عاصمته الأولى بميدوم بأقصى الجنوب من منطقة منف عند مكان يطل على الفيوم. كان ملوك الأسرة الأولى قد أسسوا مدينة تسمى "إنب حج"؛ أي الجدار الأبيض عند أطراف هضبة سقارة أو شمال مقابر الأسرة الأولى، في حين أن حكام الدولة القديمة قد أقاموا بمنطقة منف، وأحضروا بلاطهم الملكي بجوار أهراماتهم حتى تكون جميع المشروعات الإنشائية تحت مراقبتهم. وكانت تلك المنطقة من الناحية الاستراتيجية في غاية الأهمية، حيث إنها تقع قرب نقطة التقاء وادي النيل بالدلتا (مصر العليا) و(مصر السفلى)، كما أنها تسيطر على طرق التجارة ناحية الشمال الشرقي.

وكان النظام الإداري للملك سنفرو يتكون من مجموعة من أعضاء عائلته الذين خدموه بصفتهم مستشارين وقائمين على تنفيذ أوامره، وكان أعلى منصب في هذا النظام هو المشرف على جميع أعمال الملك، وكان يحمل منصب وزير أيضاً، وقد ظهر منصب الوزير مرة واحدة فقط قبل سنفرو بأواخر الأسرة الثانية، حيث حصل عليه شخص يدعى "منكا". وينسب لسنفرو أنه بداية من عهده استمر هذا المنصب دون انقطاع خلال الدولة القديمة. وكان الوزير وحده هو الشخص الثاني بعد الملك وهو المسئول الأول عن تنفيذ أوامر جلالة الملك.

وكان أول وزير في عهد سنفرو هو "نفر ماعت"، وكانت مقبرته التي كانت مناصفة مع زوجته "آتت" تقع بميدوم، ونعرف أنه كان "الابن الأكبر للملك" إلا أننا لا نعرف تحديداً أي ملك كان أبوه. فيبدو أنه كان ابن الملك حوني من زوجة ثانوية مما يجعله أخًا غير شقيق لسنفرو. كما يحتمل أن يكون هو الابن الأكبر للملك سنفرو نفسه من زوجة ثانوية. وكان هذا الوزير مسئولاً عن جميع الإنجازات المهمة في عهد سنفرو؛ حيث حصل على ألقاب، مثل: المشرف على جميع أعمال الملك، وكبير المعماريين وهو ما يشير إلى عبقريته في التشييد والإدارة.

■ منظر عام لمقبرة الملك عحا– أبيدوس.

ومن أجل فهم الإبداع المعماري الذي تم خلال عهد الملك سنفرو، يجب علينا أن نعود بالزمن لتقفي بدايات المقابر الهرمية. فقد دفن أوائل ملوك مصر (الأسرتين صفر والأولى 3150–2850 ق.م) بمقابر متطورة بصحراء أبيدوس بمصر الوسطى (وهو المكان المقدس للرب أوزير لاحقاً). وكانت تلك المقابر واقعة بمنطقة تعرف بـ "أم الجعاب"، وهي عبارة عن مقابر ذات أسوار محيطة، والتي كان يتم بها الطقوس الجنائزية بالقرب من سهل الفيضان. وفي الأسرة الأولى كانت كل من المقابر وأسوارها الجنائزية محاطة بصفوف من المدافن الثانوية، التي تضم أجساد أفراد ممن خدموا في البيت المالك، والذين كانوا يتم التضحية بهم عند موت الملك حتى يخدموه في العالم الآخر.

وهناك عدد من المقابر المتطورة بمنطقة سقارة بالقرب من العاصمة القديمة "إنب حج" التي بنيت على شكل مصاطب. وعندما تم العثور عليها في بادئ الأمر، اعتقد المكتشفون أنها كانت لملوك الأسرة الأولى، ولكن يعتقد عديد من العلماء حالياً أنها مقابر كبار رجال الدولة. وعلى الرغم من قربها من العاصمة وحجمها الهائل وتطورها المعماري، إلا أنه من المحتمل أن تكون تلك المقابر عبارة عن مدافن تذكارية لهؤلاء الملوك أنفسهم، أو أنها مقابر لكبار الموظفين. أما العديد من ملوك الأسرة الثانية فقد دفنوا بسقارة (بمنطقة أسفل معبد الملك ونيس آخر ملوك

■ مقابر كبار الموظفين خلال عهد الأسرة الأولى– سقارة.

الأسرة الخامسة)، وإن كان آخر ملكين من تلك الأسرة قد دفنا بمقابر بأبيدوس (دون أية أضاحي بشرية مثل التي كانت موجودة ببداية الأسرة). ومن المعروف أن هذه العادة تمت خلال الأسرة الأولى فقط، وقد كشف عنها بتري وأكدها الألماني درايز، وأنها لم تكن تضحية بشرية بالمعنى الموجود بالحضارات الأخرى، ولكن الموظفين والخدم كانوا يقتلون أنفسهم طواعية للدفن بجوار الملك الإله. وقد وجد المصريون بأنه لا داعي لهذه التجربة؛ لأنه يمكن أن يبنوا مقبرة بجوار الملك ليدفنوا فيها بعد موتهم.

وقد احتوت بعض مقابر الأسرات المبكرة على تل مبنى فوق البئر المؤدي إلى حجرة الدفن. وفي إحدى المقابر، كان هذا التل مكونًا من عدد من الدرجات البسيطة. وكان لتلك التلال أهمية واضحة، حيث مثل التل الأزلي الذي يتصور المصري القديم أن الرب الخالق وقف عليه ليخلق الكون.

وكانت دورة الحياة الزراعية، حيث الجفاف بالصيف يعقبه تجديد وإعادة خصوبة للأرض لها تأثيرها على نظريات الخلق المصرية القديمة، والتي كانت تشير إلى ظهور التل الأزلي من مياه الفوضى الموجودة من الأزل، وهو ما اقتبس من ظهور بعض الجزر النيلية كل عام بعد انحسار الفيضان. وقد ظهرت روايتان لتلك النظرية من مدن عقائدية مختلفة، حيث أتت الرواية الأولى من مدينة أون (هليوبوليس)، والتي تشير إلى ظهور الرب الخالق أتوم فوق التل الأزلي وخلق كل من الربين شو (الهواء)، وتفنوت (الرطوبة) اللذين قاما بخلق الربين جب (الأرض)، ونوت (السماء) وأنجب كلٌّ من جب ونوت أربعة أطفال هم أوزير وإيزيس وست ونفتيس. أما الرواية الثانية فتأتي من مدينة منف التي تروي أن الرب بتاح رب مدينة منف قد ظهر أيضاً فوق التل الأزلي، وخلق الكون عن طريق الكلمة. ويبدو أنه من المحتمل

■ تمثال الملك زوسر– حجر جيري ملون– المتحف المصري.

أن تكون عملية الخلق قد تمت من خلال جانب أنثوي، فمثل دور كل من أتوم وبتاح، كانت الربة نيت ربة مدينة سايس قد خرجت للوجود دون شريك وخلقت جميع الأرباب والبشر داخل قلبها.

وكان الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة قد اتخذ فكرة هذا التل وحولها إلى هرم مدرج ضخم يصعد إلى السماء (وكلمة هرم بالإنجليزية Pyramid مشتقة من أصل يوناني بمعنى الكعك الصغير، في حين أن المصري القديم قد استخدم كلمة mr لوصف هذا المبنى المهول). وعلى الرغم من أن حجر باليرمو قد ذكر بناء معبد بنهاية الأسرة الثانية من الحجر، إلا أننا نملك دليلاً على أن هذا المعبد لم يبن إطلاقاً، حيث إن مجموعة زوسر الهرمية هي أول أثر حجري على الإطلاق.

وقد خضع الهرم المدرج لعديد من التغييرات في تصميمه. ففي بداية الأمر بدأ الهرم في شكل مصطبة واحدة، ثم قام المعماريون بإكمالها حتى وصلت إلى ست درجات متتالية. وهذا التغيير المعماري يعكس تغييراً في المعنى، فبالإضافة إلى دوره كتل أزلي والذي يصعد عليه الملك المتوفي بصفته الرب الخالق، فإن الهرم المدرج يمثل سلماً إلى

■ منظر جوي لهرم سقارة المدرج أوائل القرن العشرين.

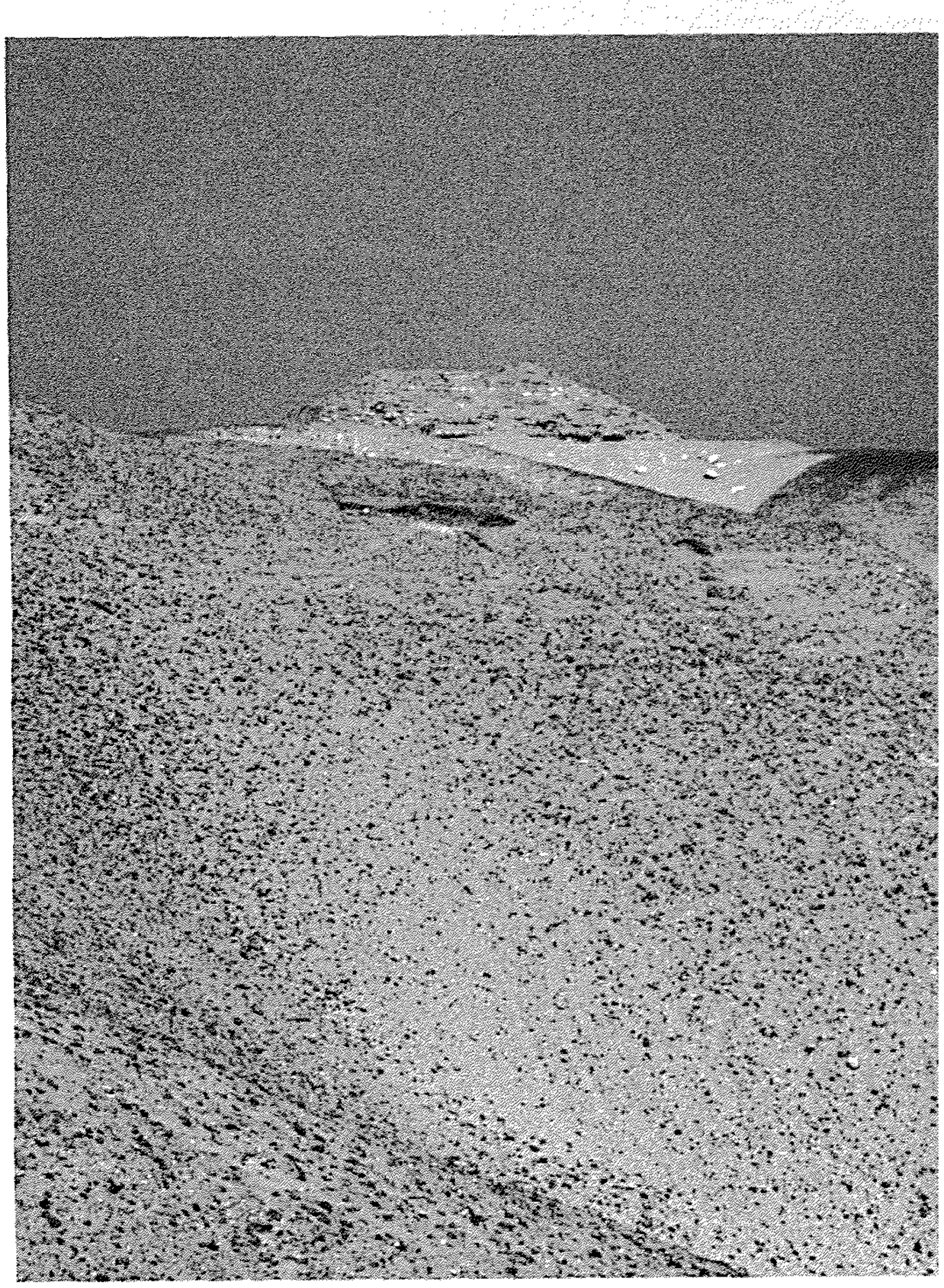

السماء، الذي تقوم روح الملك بارتقائه حتى تصل إلى السماء وتنضم للصحبة المقدسة، حيث النجوم الخالدة. أما الأنفاق والسراديب أسفل الهرم فتصل إلى قرابة سعة كيلو مترات في الطول، وذلك في حال وضعها على الكومبيوتر كما أننا مازلنا نكشف عن سراديب جديدة أثناء عمليات ترميم الهرم التي تتم الآن.

ويحيط بالهرم المدرج مجموعة من المعابد والمقاصير، حيث إن معظمها صمم بدون وظيفة كي تحاكي المقاصير الفعلية التي توجد بعالم الأحياء. وكانت معظم تلك المباني تركز على الاحتفال بعيد السد، تلك المناسبة الهامة التي يحتفل بها الملك في أول الأمر بعد مرور ثلاثين عاماً من حكمه، ثم بعد ذلك أقيم هذا الاحتفال بعد فترة وجيزة من الحكم. وكان الملك يظهر خلال هذا الاحتفال وهو يركض مرتدياً نقبة قصيرة وقلادة على صدره ويمسك بالمذبة (والتي كانت إحدى الشارات الملكية). ويمكن ترجمة هذا الاحتفال بمثابة يوبيل قصير، والذي يتم من خلاله تجديد قوة الملك. كما يتضمن هذا الاحتفال فكرة انتهاء الملك من القيام بالمهام التي كلفته بها الأرباب وهو ما يظهر الانتهاء من بناء مجموعته الجنائزية. وتحيط بالمجموعة جدران ضخمة مزينة بكوات على شكل واجهات القصر، والتي رأيناها بالجدران المحيطة لمقابر الأسرات المكبرة بأبيدوس ومصاطب سقارة.

ومن المعروف أن عددًا من خلفاء زوسر قد شرعوا في بناء أهرام مدرجة، ولكن يبدو أنهم لم يعيشوا حتى يكملوا تلك الأهرام، والقليل منهم قد نجح في تطوير المقبرة الملكية خلال تلك الفترة. أما عن مقبرة الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة فلم يتم التعرف عليها حتى الآن. وهناك قرابة سبعة أهرام صغيرة تقع بمصر العليا بطول البر الغربي للنيل بداية من سيلا بالشمال وحتى ألفنتين بالجنوب، وتختلف تلك الأهرام في تفاصيلها وإن كانت متماثلة في الحجم والتكوين الأساسي لها. وكانت جميع تلك الأهرام مدرجة الشكل، ولا تحتوي على أية حجرات داخلية

■ هرم سيلا بالفيوم.

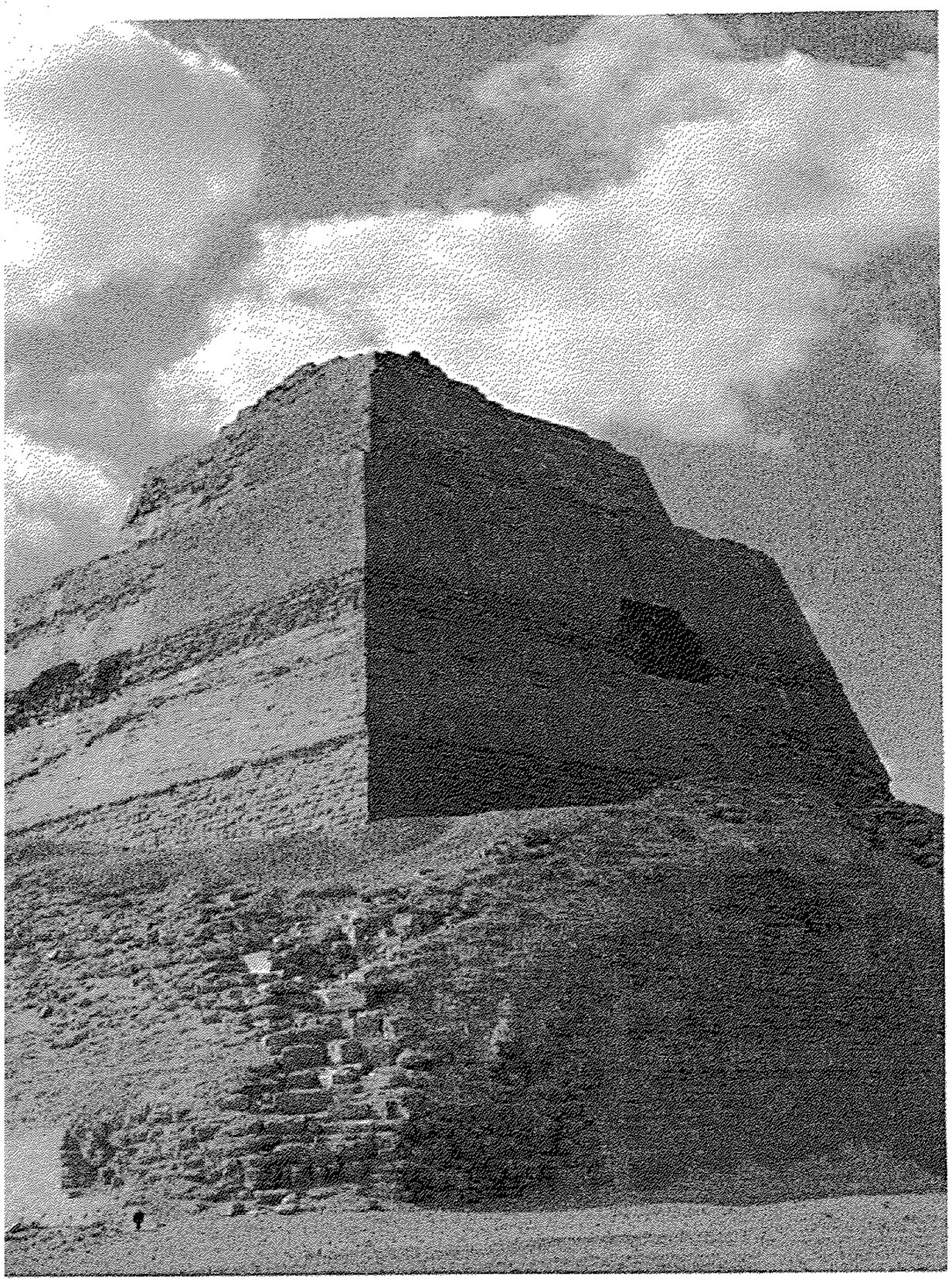

أو مبانٍ ملحقة كالمعابد العقائدية. وقد عثر على شكل مخروطي من الجرانيت بالقرب من هرم ألفنتين، حيث كان يحمل اسم الملك حوني، ويعتقد أن بقية الأهرام الستة (مع استبعاد هرم سيلا بأقصى الشمال) قد بناها الملك حوني أيضاً.

ويعتقد بعض العلماء أن تلك الأهرام المدرجة هي رموز للأقاليم المصرية أو لعواصم المقاطعات التي يحكمها ممثلو الملك، في حين يرى آخرون أنها كانت مقابر للملكات اللاتي ولدن بالمقاطعات أو أنها مقابر مقدسة لها علاقة بأسطورة حورس وست. وفي اعتقادي الشخصي أن تلك الأهرام هي تمثيل للتل الأزلي والتي ترتبط بالمقر الملكي. وعلى أية حال، فيحتمل أن تكون تلك الأهرام خاصة بالملك حوني، وإن صحت تلك المعلومة، فإنها ستكون كل ما عثرنا عليه لهذا الملك من أهرام.

أما هرم سيلا، فقد بناه الملك سنفرو كأول أهرامه الأربعة، وهو الآن يصل إلى قرابة 7 أمتار وهو مبني من كتل صغيرة من الحجر الجيري ومونة الرمال والطين، وعلى مسافة منه يمكن للناظر أن يعتقد أنه على شكل مصطبة كبيرة، ولكن من قرب يتضح أنه هرم مدرج. وكان طول أحد أضلاعه يصل إلى قرابة 25م، وقد عثر على كتل هذا الهرم مجموعة من الجرافيتي – وهي الكتابات والعلامات الموجودة على الصخور– ولم يعثر بهرم سيلا على حجرة دفن، كما لا يوجد أي دليل على وجود معبد جنائزي عدا بقايا بعض الأحجار البسيطة من الطوب اللبن تحدد الطريق الصاعد ناحية الشرق. وقد عثر العالم الألماني لودفيج بورخارت Ludwig Borchardt بأواخر القرن 19 على بقايا من البازلت عند حافة الفيضان، مما يرجح وجود تماثيل أو معبد الوادي بتلك المنطقة.

وكان من المعتقد أن هذا الهرم يرجع لعصر الأسرة الثالثة، رغم عدم وجود أية أدلة حول تلك النظرية. وقد

■ هرم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة– ميدوم.

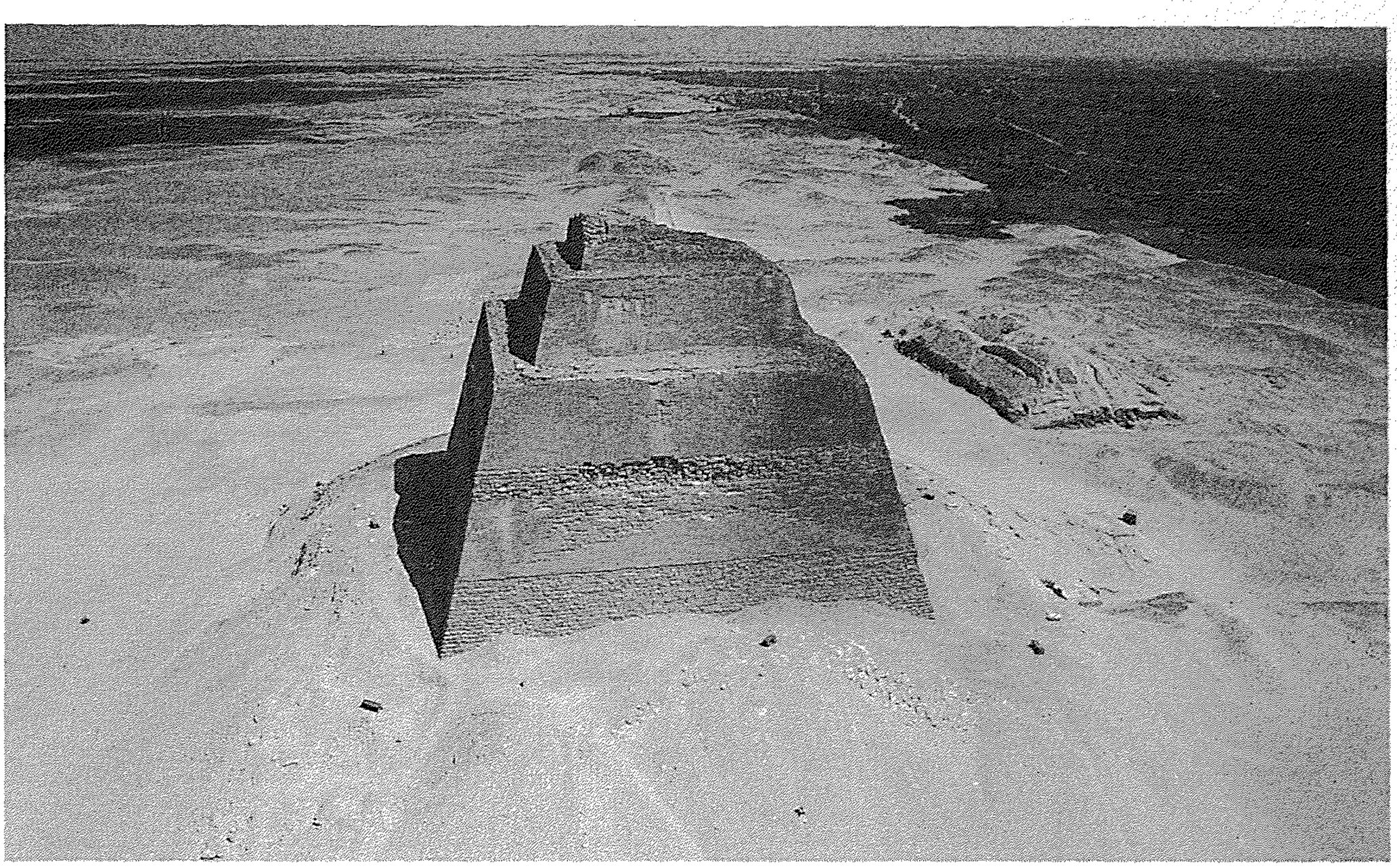

كشفت الحفائر الحديثة عن لوحة كاملة وأخرى عبارة عن بقايا متاخمة للمنطقة، احتوت الأولى على اسم الملك سنفرو داخل السرخ (واجهة القصر) يعلوه الصقر حورس. وتلك اللوحة تثبت أن هذا الهرم يخص سنفرو، بعد أن كان يعتقد أنه يخص والده الملك حوني. ويحتمل أن هذا الهرم الصغير ربما كان مكانًا عقائديًّا حيث يمثل التل الأزلي المرتبط بالقصر الملكي.

ويبدو أن الملك سنفرو قد خطط لإقامة مجموعته الهرمية الأولى بميدوم بالصحراء الغربية، قرابة 100كم (62 ميلاً) جنوبي القاهرة. ويظهر هذا الهرم الآن وكأنه برج فوق تل، حيث كانت أعمال تقطيع الحجارة التالية لعهده قد عملت على إزالة حجارة الكساء وأدت إلى انهيار جزئي له. وقد تمت دراسة هذا الهرم على يد العديد من العلماء والمغامرين، وكانت أول دراسة علمية تمت لهذا الهرم على يد العالم الإنجليزي جون برنج في عام 1837م.

وكان من المعتقد قديماً أن هذا الهرم خاص بالملك حوني، ولكن مع إقامة عديد من الدراسات والاستكشافات لم يتضح العثور على أي مقبرة أو هرم لهذا الملك، فقد كانت كل الأدلة ترجح كفة الملك سنفرو بصفته الملك الوحيد الذي أقام هذا الهرم، حيث عثر على جرافيتي ينسب هذا الهرم لسنفرو، بالإضافة إلى الاسم القديم لميدوم وهو "جد سنفرو" يدعم هذا الاحتمال.

■ منظر جوي لهرم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة– ميدوم.

وقد أقام الملك هذا الهرم على غرار أهرام أسلافه، حيث بني على شكل مصاطب متتالية، فهو يتكون من 7 مصاطب، وعندما وصل العمال إلى المصطبة الرابعة أو الخامسة قاموا بزيادة طبقة أخرى. ويصل طول أحد جوانب قاعدته إلى قرابة 144م (472 قدمًا) في حين يصل الارتفاع الأصلي إلى قرابة 92م (302 قدم).

ويقع مدخل الهرم بالجانب الشمالي منه ويرتفع نحو 30م (98 قدمًا) عن سطح الأرض، ويليه ممر طوله 58م (187 قدمًا) ينحدر لأسفل حتى يصل إلى القاعدة الصخرية للهرم، ثم يسير أفقيًّا لعدة أمتار، ثم يصعد مرة أخرى باتجاه رأسي ليصل إلى حجرة الدفن التي تقع بقلب الهرم. وكان سقف تلك الحجرة مقبيًّا وهو أسلوب جديد في البناء. و لم يعثر على أية بقايا للدفن داخل تلك الحجرة إلا أنه قد عثر على قطع من تابوت خشبي بقاع الممر الرأسي (بئر الدفن) يرجع إلى نفس الفترة.

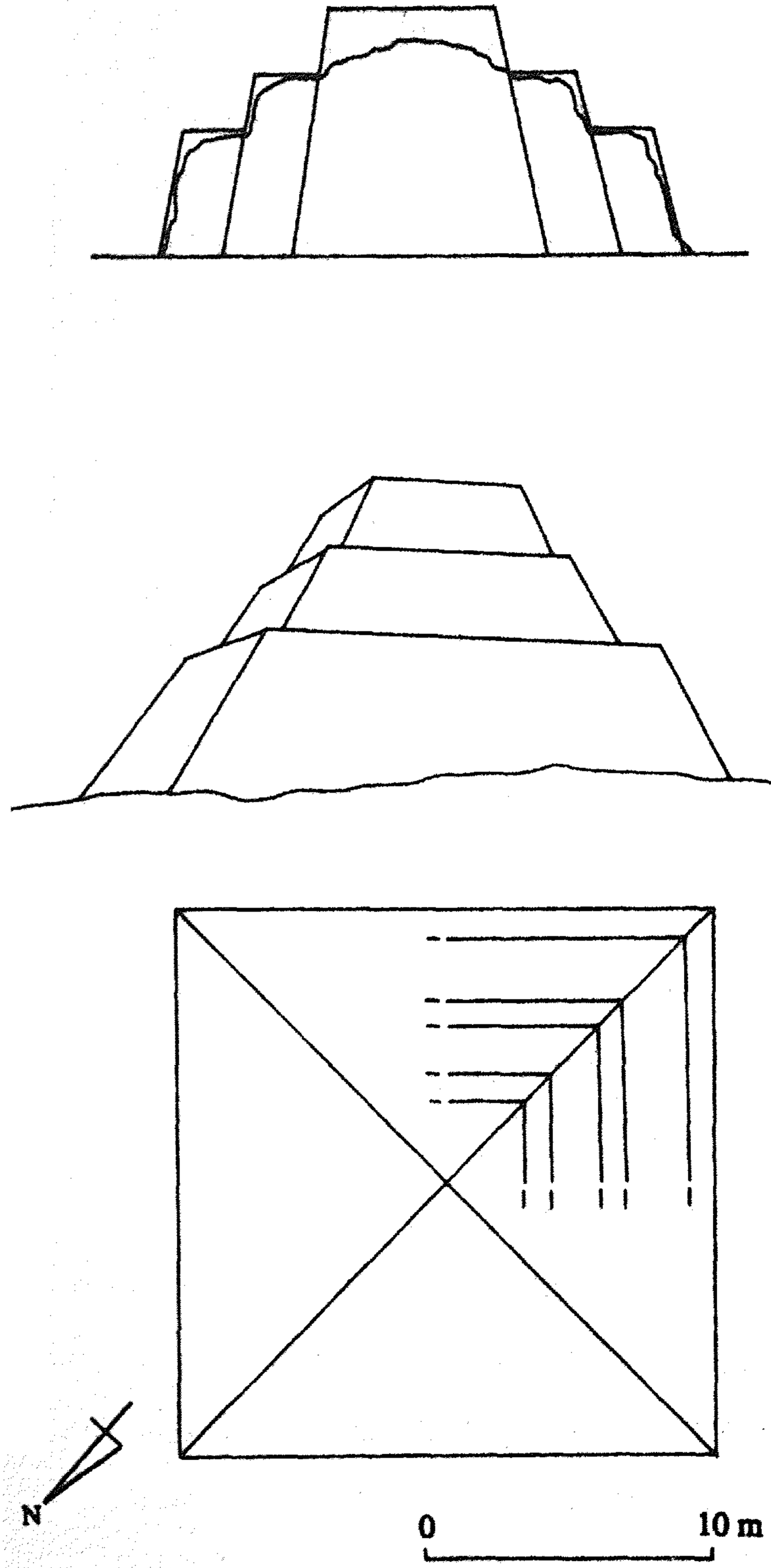

أما عن بقية عناصر المجموعة الجنائزية لهذا الهرم، فتبدأ بمعبد الوادي المتاخم للوادي أو عند الميناء وإن لم يبق منه شيء حالياً. وينطلق من هذا المعبد الطريق الصاعد ليصل إلى مقصورة صغيرة متاخمة للجانب

■ رسم تخطيطي لهرم ميدوم.

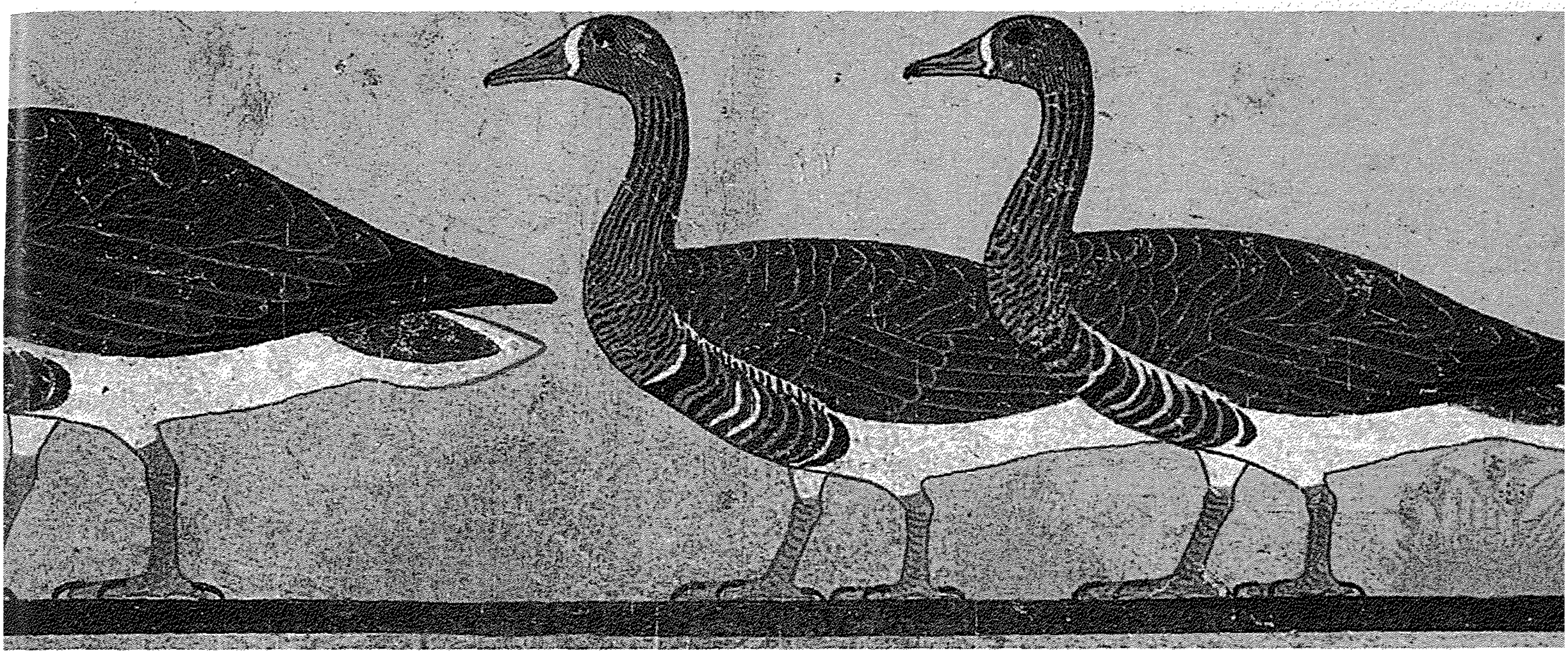

الشرقي للهرم، وقد عثر على لوحتين لهما قمم مستديرة داخل تلك المقصورة وإن لم يحتويا على اسم الملك. ويحيط بالهرم وتلك المقصورة الجنائزية سور من الطوب اللبن.

وداخل هذا السور وإلى الجنوب من الهرم الأساسي يوجد هرم ثانوي ومقبرة أخرى على شكل مصطبة، أما عن الهرم الصغير فكان خاصًّا بعقيدة سنفرو. وتلك الفكرة أصبحت أساسية في بقية المجموعات التالية، وقد ظهرت نظريات مختلفة حول دور هذا الهرم، حيث يرى بعض العلماء أن أصل هذا الهرم يرجع إلى مجموعة زوسر، التي احتوت على مصطبة إلى الجنوب من الهرم الأساسي. وأسفل تلك المقبرة المعروفة بالمقبرة الجنوبية توجد مجموعة من الممرات تشبه الممرات الموجودة أسفل الهرم المدرج ومزينة بكوات تمثل الملك وهو يقوم بطقسة الحب سد. أما حجرة الدفن بداخل تلك المقبرة الجنوبية فهي على شكل مربع وبحجم صغير على أن تحتوي على تابوت.

ويعتقد مجموعة من العلماء أن تلك المقبرة والأهرام الثانوية كانت مخصصة لحفظ الأواني الكانوبية، التي كانت تحتوي على أحشاء الملك، في حين رأى آخرون أنها تمثل مقبرة لملك مصر العليا أو كمكان لدفن التاج الملكي والشارات الملكية أو كمقبرة للكا أو القرين والتي تتقبل القرابين المقدمة للملك. وهناك علماء رأوا أن تلك الأهرام الثانوية تخص الاحتفال بعيد السد. والمعتقد أن هذا الهرم كان مخصصًا لتغيير ملابس الملك أثناء احتفالات عيد السد وهو الاحتفال الذي كان يقيمه الملك أمام الهرم لكي يظهر بأنه قد أنجز كل ما طلبه منه الملك الأعظم قبل أن يصبح إلهًا.

■ منظر من مقبرة نفرماعت الذي يعرف بمنظر إوز ميدوم- حجر جيري ملون- المتحف المصري.

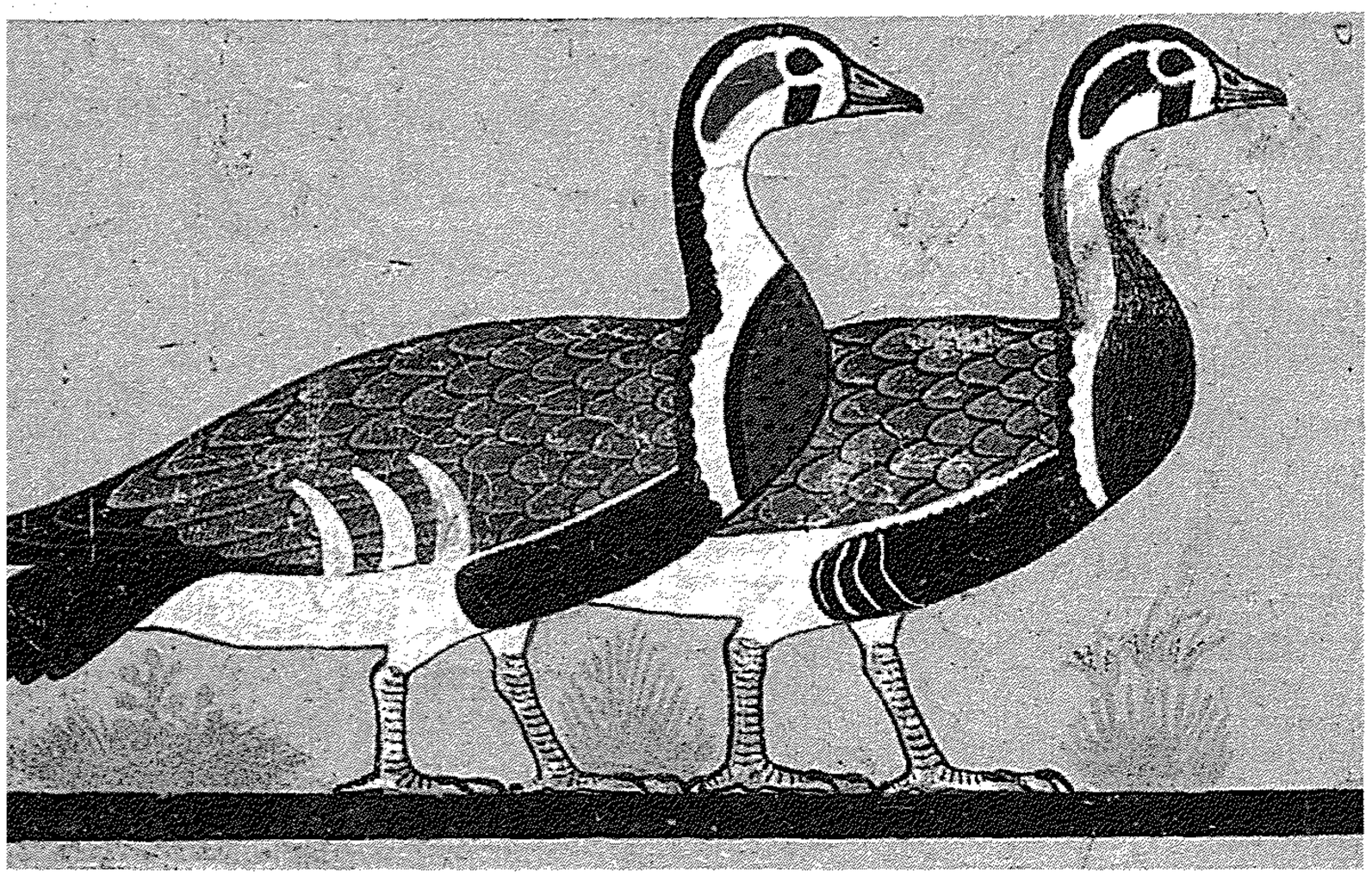

أما المصطبة الواقعة بجنوب الهرم، فهي تضم حجرة دفن صغيرة الحجم، يصل إليها ممر عريض تكتنفه كتل ضخمة من الحجر الجيري. أما الحجرة نفسها فمسقوفة بعروق من الحجر الجيري تصل إلى قرابة 4 أمتار(14 قدمًا). وبالركن الشمالي الغربي من تلك الحجرة عثر على تابوت يضم هيكلاً عظميًّا له ركبتان ملتويتان يتجه برأسه نحو الشمال ووجهه نحو الشرق، كما عثر على مجموعة من قطع الفخار ترجع لأوائل الأسرة الرابعة. ويحتمل أن يكون هذا الهيكل العظمي خاصًّا بإحدى الملكات وهي أم الملك سنفرو الملكة مرسي عنخ والتي انتشرت عقيدتها بميدوم في عصور لاحقة. وقد عثر على جرافيتي من الدولة الحديثة (أي بعد 1000 سنة) عبارة عن صلوات ودعوات للكا الخاصة بكل من الملك سنفرو وأمه الملكة مرسي عنخ وهو ما يؤكد أن الملكة المدفونة بتلك المقبرة هي مرسي عنخ.

وفي الركن الشمالي الشرقي من الجدار المحيط توجد مصطبة كبيرة رقم 17. ويوجد داخل تلك المصطبة تابوت من الجرانيت الأحمر – والذي يعد الأقدم من نوعه– يضم رفات جردت تماماً من الجلد، حيث يبدو أنه قد تم لف العظام بشكل منفصل، ثم تم وضعها بمكانها الأصلي، ثم تم لف الجسد ككل. ولا توجد أية نقوش يمكن أن تدلنا على هوية صاحب المقبرة. ومع ذلك، ومن خلال حجم وموقع المقبرة ومن خلال حقيقة أنها هي أول مقبرة لأفراد تبنى من الحجر، يمكن التكهن بأنها تخص أميرًا مهمًّا، حيث يعتقد أنها لأحد أبناء الملك حوني، أو أنه ابن لسنفرو والذي مات في بدايات حكم والده. وهناك من يرى أن هذا الجسد الملفوف هو للملك حوني نفسه.

■ إوز ميدوم.

وقد استمر العمل بميدوم طيلة 14 عامًا، حيث دفن بها عدد من الأمراء والنبلاء وهو ما يؤكد كونها مركز قوة لفترة زاهية. ومن بين هؤلاء النبلاء كانت مقبرة الوزير الشهير نفر ماعت وزوجته إتت. وكانت مقبرتهما قد زينت عديد من المناظر البديعة التي تمثلهما وهما يتقبلان القرابين، بالإضافة إلى قيام الخدم بأعمال الحياة اليومية، وتقوم تلك المناظر من الناحية الرمزية بضمان حصول المتوفي على الغذاء الذي يحتاجه في العالم الآخر، كما كان لها مغزى ديني وهو التأكيد على تطبيق النظام بالكون المصري.

وتعد مناظر مقبرة نفر ماعت وآتت شائقة للغاية؛ لأنها تكشف عن قدر من التجارب الفنية وهو ما كان سمة عصر سنفرو، حيث نرى بعض المناظر ملونة على الجص في حين أن البعض الآخر بالإضافة إلى بعض النقوش الهيروغليفية قد نقشت بطريقة غائرة، ثم ملئت بالألوان. وتلك التقنية الفنية الجديدة لم تثبت نجاحها، وهو ما أدى إلى تركها على الفور. أما حجرة الدفن، فكانت تحتوي على هيكل عظمي. ويبدو أن تلك الحجرة قد تعرضت للاعتداء أثناء إغلاقها أو بعدها بقليل. وهذا يمكن أن يعد دليلاً على أن البلاط الملكي قد نقل بالفعل وهو ما أدى إلى ضياع الأمن بتلك المنطقة.

وعموماً فأنا أعتقد في السيناريو الذي يفيد بأن الملك سنفرو حكم 44 عامًا طبقًا للجرافيتي الذي عثر عليه بجوار الهرم الشمالي والخاص بتعداد الماشية. وقد بدأ في بناء هرم ميدوم كهرم مدرج ثم تركه ليبني الهرم المنحني، ونظراً للخطأ الذي تم في البناء بدأ الملك في تشييد أول هرم كامل وهو الهرم الأحمر أو الشمالي، وبعد أن انتهى من بناء هذا الهرم عاد إلى ميدوم ليحول الهرم المدرج إلى هرم كامل، وبذلك يعتبر هرم ميدوم في رأيي بداية ونهاية حكم الملك سنفرو.

هذا وأستطيع أن أؤكد أن الملك سنفرو قد دفن داخل الهرم المنحني لأسباب كثيرة منها اكتمال عناصر المجموعة الهرمية، وكذلك كساء الهرم بالإضافة إلى سر الهواء البارد الذي يشعر به الزائر عندما يدخل الهرم.

الفصل الثالث

سنفرو وعقيدة الشمس

كانت وفاة ابنه المحبب سببا في جعل سنفرو في غاية الحزن.. فقد رحل ولي العهد ولن يؤدي دور حورس على الأرض ولن يحكم الأرضين ولن يرتل دعوات ولن يقدم القرابين لمقبرة والده.. وقام سنفرو ببناء مقبرة ضخمة له بالقرب من هرمه بميدوم وقام بدفنه في جنازة مهيبة.. إلا أنه لم يتحمل أن يمكث بجواره..

وقام الملك باستدعاء وزيره نفر ماعت وأعلن هجرته لميدوم وانتقاله لمدينة جديدة.. وقد انخرط الرجلان في مناقشات دينية وهم يقرءون النصوص القديمة، محاولين فهم إرادة الأرباب لطرق تطبيق الماعت.. فلم يعد هناك المزيد أمام الملك كي يبني سلمه الأبدي الذي سيصعد به للحاق بالأرباب في السماء.. فيمكن له أن يندمج مع رب الشمس رع ويدفن تحت أشعة الشمس...

في العام 15 من حكمه، قرر سنفرو بناء نوع جديد من الأهرام بعد أن هجر مجموعته بميدوم، وترك عاصمته ليستقر بمدينة جديدة ناحية الشمال بدهشور. ومن الصعب التكهن بسبب قيام الملك باتخاذ هذا القرار، فهل كانت دهشور مدينة استراتيجية مما يمنحه سيطرة أفضل على الدلتا أو أنها نقطة انطلاق جيدة لحملات الجيش؟ لم تكن دهشور ببعيدة عن العاصمة القديمة ميدوم، فكلتاهما بمنطقة منف؛ لذا فإنه من الصعب التخيل أن تلك النقلة البسيطة يمكن أن تحدث تغييرًا كبيرًا في الاستراتيجية. وكانت دهشور قريبة من عاصمة الأسرات المبكرة والمراكز المقدسة الشمالية الخاصة بأسلاف سنفرو بسقارة، وهو ما يعد سببًا مقنعًا. وهل كان التغيير نتيجة مشاكل عائلية؟ وهل فعلاً أن ولي العهد قد مات؟ فمن المحتمل أن ذلك الهيكل العظمي الذي عثر عليه بالمقبرة 17 بميدوم لابن سنفرو. ولكن يبدو أن كلاً من تلك الأسباب السالفة كانت سببًا في الانتقال إلى دهشور.

وفي تلك الفترة كانت دهشور أرضًا بكرًا وتعد المكان الأنسب ليقوم سنفرو ببناء هرمه عليه. وأعتقد أن قرار الانتقال كان متعلقًا في المقام الأول بالناحية العقائدية؛ حيث كانت الفرصة لإقامة هرم حقيقي ذي رمزية شمسية واضحة.

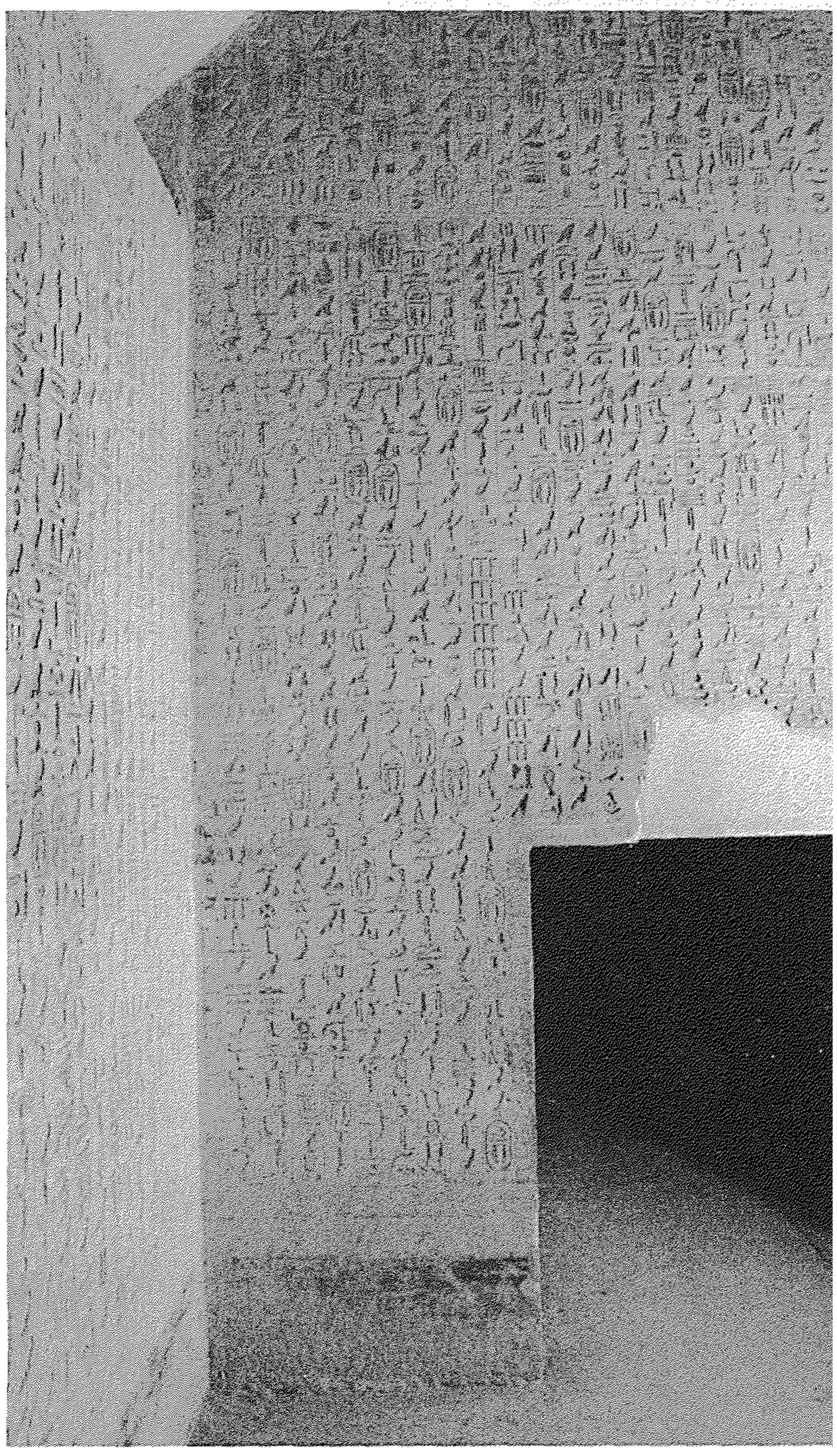

دعونا الآن نتحدث عن كيفية قيامنا بإعادة تكوين الأفكار القديمة لتلك المباني التي اكتشفناها. فيمكن للمعمار نفسه أن يوضح لنا الكثير من النواحي، في الوقت الذي يمكن لنا أن نضيف بعض المعلومات عن طريق العديد من المناظر والنصوص التي تركها القدماء. ويجب علينا أيضاً أن نستخدم المصادر المتأخرة للاستدلال على المباني القديمة ومحاولة لاستقراء ما هو أقدم. وبالنسبة للدولة القديمة، فقد توافر لنا قدر كبير من الحظ للحصول على مجموعة هامة من النصوص الدينية والتي تعرف باسم "متون الأهرام". وقد عثر على تلك المتون بالحجرات الداخلية لأهرام أواخر الأسرة الخامسة والأسرة السادسة، وقد خصصت للملوك والملكات، حيث تتكون من مجموعة من التعاويذ، والتي تهدف لمساعدة الملك خلال رحلته إلى العالم الآخر وتحديد علاقة الملك بالأرباب وتأكيد وضعه بصفته معبوداً ومساعدته في الانتقال لرب الشمس.

وتكشف اللغة العتيقة التي كتبت بها تلك النصوص بأنها قد كتبت قبل الأسرة الخامسة، ومن المحتمل أنها كانت تكتب على مواد أكثر قابلية للفناء. ومن ذلك، فإن كلاً من الدلائل الأثرية والمعمارية تأخذ الأولوية في الاستخدام عندما نقوم بتحليل الآثار المصرية القديمة.

وبالإضافة إلى دورها كرمز للتل الأزلي وكسلالم أبدية إلى النجوم، فإن الأهرام الحقيقية ترمز أيضاً لأشعة الشمس الهابطة على الأرض، كما أنها تعكس رمزية الـ بن بن ذلك الحجر المدبب الذي يرمز للشمس. وهذا الشكل قد احتفظ به المعبد الرئيسي لمدينة أون القديمة (شمال شرق مدينة القاهرة حالياً والتي أطلق

■ متون الأهرام من داخل هرم الملك ونيس– سقارة.

عليها الإغريق اسم هليوبوليس؛ أي مدينة الشمس وحالياً اسم عين شمس أو المطرية)، كما كان مركزاً لعبادة الشمس في مصر القديمة إبان الدولة القديمة على الأقل.

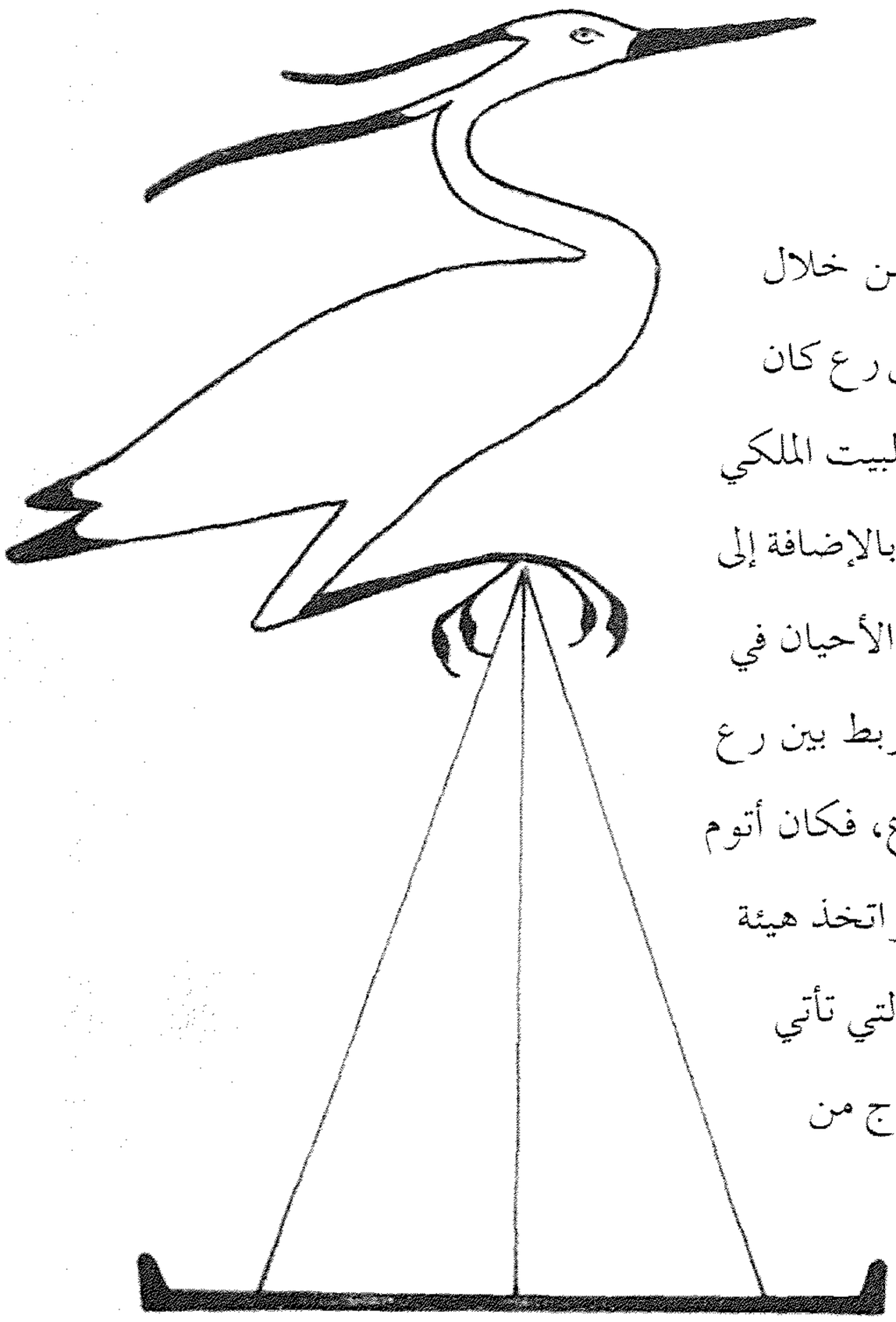

وطبقاً للعقائد الدينية التي حاولنا إعادة تشكيلها من خلال مصادر متعددة، من بينها متون الأهرام، فإن رب الشمس رع كان كبير المعبودات، في حين أدَّت ابنته حتحور دوراً هامًّا بالبيت الملكي بصفتها زوجة حورس الذي يمثله كل ملك. أما حورس بالإضافة إلى دوره كابن لأوزير، فكان يمثل ابن رع أيضاً (وفي بعض الأحيان في بعض العقائد يعد ابن حتحور). وقد قام كهنة أون بالربط بين رع وأتوم المعبود القديم لمدينتهم، حتى أصبح اسمه أتوم رع، فكان أتوم الرب الخالق الذي صعد فوق التل الأزلي ليخلق العالم واتخذ هيئة الطفل الوليد نفرتوم رع. وتمثل مناظر تلك الأسطورة والتي تأتي من أواخر التاريخ المصري القديم زهرة لوتس كبيرة تخرج من المياه الأزلية والتي تسبق عملية الخلق، وبداخل تلك الزهرة يجلس رب الشمس على هيئة طفل يضع يده بفمه كدليل على الشباب. وهناك نوع آخر من المناظر يمثل هذا الطفل الوليد يظهر فوق التل الأزلي على ظهر بقرة بمنتصف المياه الأزلية.

في رواية أخرى لتلك الأسطورة، يظهر الـ بن بن من المياه الأزلية، في حين يقف فوقه رب الشمس في هيئة طائر الفونكس. وتشير نصوص أواخر الدولة القديمة إلى أحجار الأهرام بأنها "بن بنت" وهي إشارة مباشرة للبن بن. وعلى هذا، فإنه مع كل غروب يموت رب الشمس رع وينزل أسفل الأفق الغربي ويقضي الليل محارباً وحوشَ وأخطارَ العالم السفلي؛ من أجل الانضمام لأوزير حتى يتمكن من الولادة في الشروق ويعيد عملية الخلق اليومية.

■ تصوير لطائر الفونكس أو البن بن يقف على التل الأزلي.

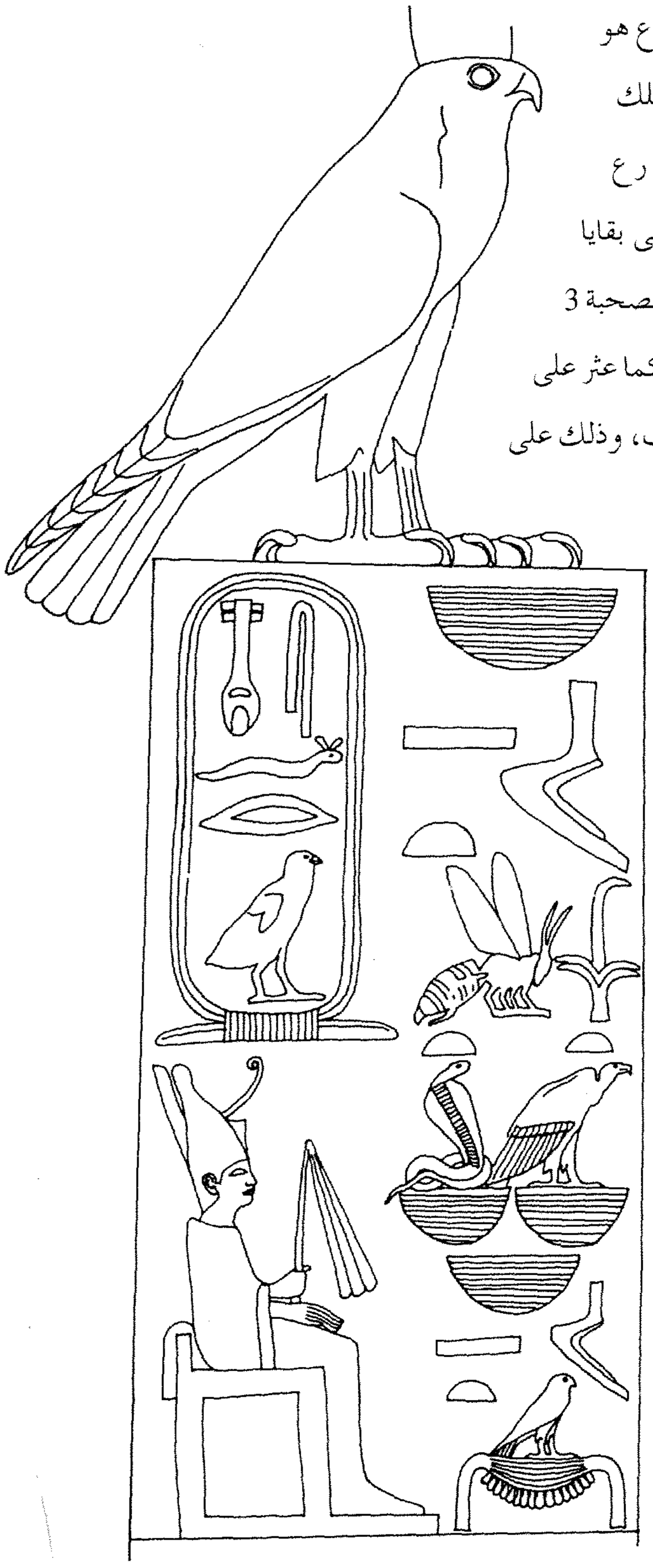

وكان أحد ملوك الأسرة الثانية يدعى "رع نب"؛ أي رع هو السيد، وهو ما يرجح أن رب الشمس كان يعبد خلال تلك الفترة (نحو 2850 ق.م) وقد عرفنا مدى أهمية عقيدة رع خلال عصر زوسر بالأسرة الثالثة على الأقل. وقد عثر على بقايا نقوش إحدى المقاصير بمدينة أون، والتي تصور هذا الملك بصحبة 3 نساء ملكيات (ربما أمه وزوجته الرئيسية وابنته الكبرى). كما عثر على أحد أسماء الملك زوسر وهو "رع نبو"؛ أي رع هو الذهب، وذلك على قاعدة تمثاله الشهير مرتديًا رداء عيد السد، والذي عثر عليه بالسرداب بالقرب من معبده الجنائزي. كما عبد رب الشمس بمعبد خاص به يسمى "بر نبو"؛ أي بيت الذهب بمدينة أون، حيث كان الذهب هو مادة الشمس البراقة التي لا تصدأ.

وفي عهد الملك حوني ظهر رمز شمسي هام لأول مرة، وهو الخرطوش ذلك الشكل البيضاوي الذي يضم اسم الملك. وقد عرفنا من النصوص المتأخرة أن ذلك الشكل يمثل "كل ما يحيط به قرص الشمس" وهو ما يربط الملك برب الشمس بوضوح. أما بالأسرة الرابعة فنرى أن العديد من موظفي سنفرو قد حملوا لقب "كبير الرائين بأون" (كبير كهنة هليوبوليس)، حيث عملوا ككبار الفلكيين والمسئولين عن مراقبة حركة الشمس والنجوم.

ومن المحتمل أن كهنة رع بأون قد تعاظمت قوتهم خلال الأسرة الثالثة وهو ما هدد قوة الملك.

■ نص لوحة من مقصورة القرابين الخاصة بالهرم المنحني تتضمن أسماء وألقاب الملك سنفرو.

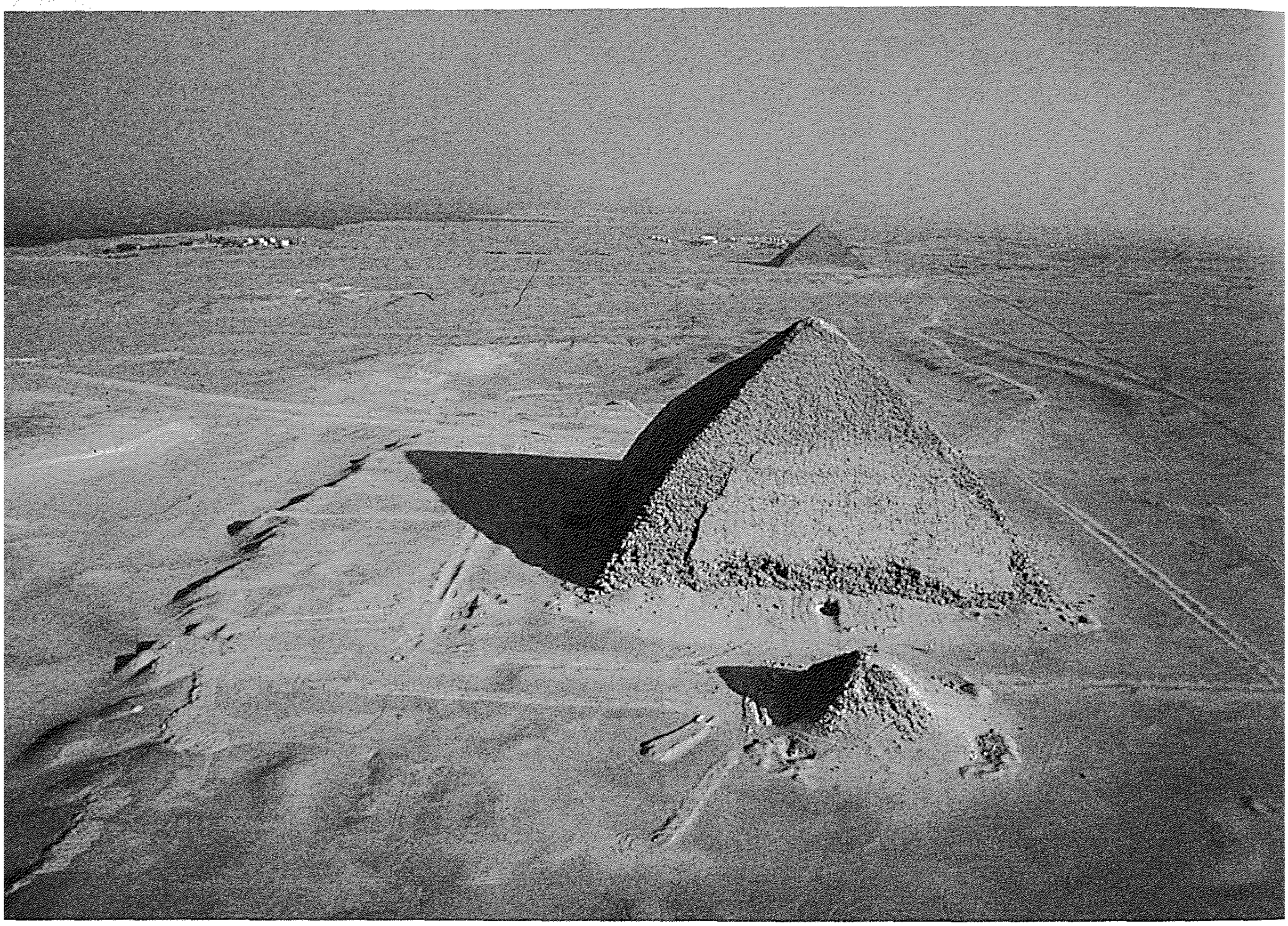

وقام الملك سنفرو على عكس التقاليد الملكية – على اعتباره حور على الأرض، ثم يصبح رب الشمس عند موته– بإعلان نفسه رب الشمس سواء أثناء حياته أو بعد مماته. وكان الدليل على ذلك هو النمط الجديد الذي اتبعه لبناء هرمه، كما أنه قد اختار موقع حجرة دفنه بالجزء العلوي من الهرم وليس تحت الأرض.

ويبدو أن سنفرو قد خطط لإقامة هرم بدهشور بعناية ناحية الجنوب، وأطلق عليه "الهرم المشع" (وهي دلالة شمسية)، وكانت زاوية الميل الأصلية 60° درجة، ولكن عندما وصل إلى طول 40م (131 قدمًا) وجد أن زاوية الهرم يمكن أن تُخِلَّ بارتفاعه وتؤثر على قاعدته مما يعرضه للخطر؛ لذلك قام بتغيير زاوية الميل إلى 54° درجة للجانب السفلي من الهرم، ثم عدل الجانب العلوي 43° درجة وأكمل بناء الهرم حتى بلغ ارتفاعه نحو 105م ويصل طول كل جانب من جوانبه نحو 188م. ولكنه ظهر بشكل غريب، حيث ظهر في شكل منكسر الزاوية في منتصفه على غير ما أراده الملك حتى سمي بالهرم المنحني، مما أدى إلى تركه والشروع في بناء هرم جديد.

■ منظر جوي للهرم المنحني بدهشور والهرم الأحمر للملك سنفرو.

■ حاملة قرابين من معبد الوادي للهرم المنحني بدهشور.

ويبدو أنه قد تم إنجاز قدر كبير من العمل سواء بهذا الهرم أو بالمجموعة الهرمية وذلك قبل أن يتم تركها. ومثلما كانت مجموعة ميدوم، كان يتم الدخول إلى تلك المجموعة من ناحية الشرق عبر معبد الوادي. وقد كشف عنها العالم المصري الراحل أحمد فخري عام 1950م، فعندما وصل إلى الموقع كان كل ما هو موجود من تلك المجموعة مجرد منطقة كبيرة مغطاة بقطع من الحجر الجيري. وبأول يوم من أيام الحفائر وبعد مرور ساعة و20 دقيقة فقط من العمل، استطاع فخري وفريقه الكشف عن جدار من الحجر الجيري. والذي كان جزءًا من معبد الوادي المفقود، ثم تم الكشف عن بقايا نقوش وتماثيل الملك.

وكانت جدران هذا المعبد مغطاة بنقوش رائعة على الحجر الجيري، وملونة بألوان زاهية. ونعتقد أن معبد الوادي كان مكانًا تصل فيه المواد المجلوبة من الخارج إلى تلك البقعة المقدسة بالمجموعة الهرمية والمخصصة لاستخدام الملك، كما كان نقطة الانتقال من الدنيوي إلى المقدس. وتحمل بعض مناظر معبد الوادي تلك الفكرة من خلال تمثيل ممثلات أقاليم سنفرو، وهن يحملن التقدمات الخاصة بالعقيدة الملكية.

وتلك المناظر الخاصة بحملة القرابين تعطينا معلومات هامة حول التوسع الكبير للأراضي لصالح البيت الملكي، حيث تظهر بعض الشخصيات من مصر العليا وأخرى من مصر السفلى وهو ما يعكس امتداد الضياع الملكية بطول وادي النيل. وكانت أغلب المناطق تقع بمنطقة مصر الوسطى، حيث اتساع سهل الفضيان، وإن هناك العديد من الضياع الخصبة بالدلتا والتي فقدنا أسماءَها.

وهناك مناظر أخرى رائعة بهذا المعبد، حيث الكثير منها يمثل الملك وهو يقوم بطقوس عيد السد (حيث الجلوس على العرش مرتديًا التاج المزدوج ورداء عيد السد أو وهو يركض خلال طقسة هذا العيد)، في حين يظهر منظرٌ آخر يمثل الملك خلال زيارته لمعبد بوتو (وهي مقصورة عتيقة)، أو قيامه بتأسيس معبد ما أو تقديمه للقرابين أمام المعبودات. كما عثر على بقايا 3 تماثيل داخل المعبد (حيث من المعتقد أن عددهم كان 6)، وقد قام المعهد الألماني للدراسات الشرقية بالقاهرة أثناء رئاسة راينر شتادلمان بإعادة تركيب أحد تلك التماثيل، حيث يمثل الملك مرتديًا التاج الأبيض لمصر العليا ونقبة ذات ثنايا وهو معروض حاليًا بالمتحف المصري بالقاهرة.

وينطلق من هذا المعبد الطريق الصاعد، يسير حتى الركن الشمالي الشرقي للسور المحيط بالهرم. وفي مواجهة

الجانب الشرقي للهرم، توجد مقصورة مفتوحة تحتوي على مائدة قرابين من الألباستر، وعلى جانبي تلك المقصورة لوحتان كبيرتان ذواتا قمم مستديرة منقوش عليهما منظر للملك برداء عيد السد والتاج المزدوج، بالإضافة إلى ألقابه داخل "السرخ" (واجهة القصر).

وإلى الجنوب من الهرم الأساسي، يوجد هرم آخر صغير يعتقد أنه مدفن الملكة حتب حرس الزوجة الرئيسية لسنفرو، ولكن الآن قد تم تحديده بأنه الهرم العقائدي للملك سنفرو، والذي كان له الدور نفسه الذي أدَّاه الهرم العقائدي بميدوم. ويحتوي الهرم من الداخل على مجموعة من الحجرات، والتي كانت نسخة مصغرة من حجرات الهرم الأساسي، وكانت حجرة الدفن صغيرة الحجم مما يصعب دخول تابوت بها. وفي مواجهة الجانب الشرقي لهذا الهرم الصغير، يوجد مكان للقرابين، والذي يضم لوحتين كبيرتين أخريين ذواتي قمم مستديرة تحملان اسم الملك وألقابه.

ويمكن دخول الحجرات الداخلية للهرم المنكسر سواء من الشمال أو الغرب. أما من خلال المدخل الشمالي، فينحدر ممر هابط حتى يصل إلى الأساس الصخري. وقد تم بناء حجرة جانبية مسقوفة بسقف مقبي من طراز الكوربيل. وفوق تلك الحجرة تقع حجرة الدفن، والتي يمكن الوصول إليها عن طريق مجموعة من الدرجات أو من خلال سلم، حيث كان سقفها أيضًا مقبيًا. أما مدخل الجانب الغربي فيبدأ بممر هابط يؤدي إلى حجرة أخرى ذات سقف مقبي.

وقد قام كل من جون برنج J.Perring وريتشارد فيز R.H.Vyse باكتشاف غريب أثناء اكتشافهما لهذا الهرم وذلك في 1830م، حيث إنه أثناء تنظيف العمال للممرات الداخلية كانوا يعانون من الحرارة الشديدة بالداخل، وفي يوم 15 أكتوبر من عام 1839م، قاموا بفتح ممر يؤدي إلى إحدى الحجرات الداخلية، وفجأة انطلق تيار هوائي بارد شديد القوة حتى كاد يطيِّر كشافاتهم. واستمرت تلك الرياح لمدة يومين وتوقفت فجأة كما انطلقت فجأة، تاركة العلماء في حالة من الاندهاش التام وعدم معرفة مصدرها. والسبب الوحيد المنطقي لتلك الظاهرة هو وجود نقطة اتصال بين تلك الحجرة وخارج الهرم، وإن لم يتم هذا عن طريق الممر الغربي، حيث إننا نعرف أنه لم يتم فتحه قبل عام 1951م على يد أحمد فخري.

أما فخري، فقد قام باكتشاف آخر غاية في الغرابة، ففي بعض الأحيان كانت تهب بعض الرياح من الصحراء مما يصدر عنها صوت عويل مرعب والذي يمكن أن يسمع داخل الهرم وخاصة بالنهاية العلوية للممر الغربي، وقد

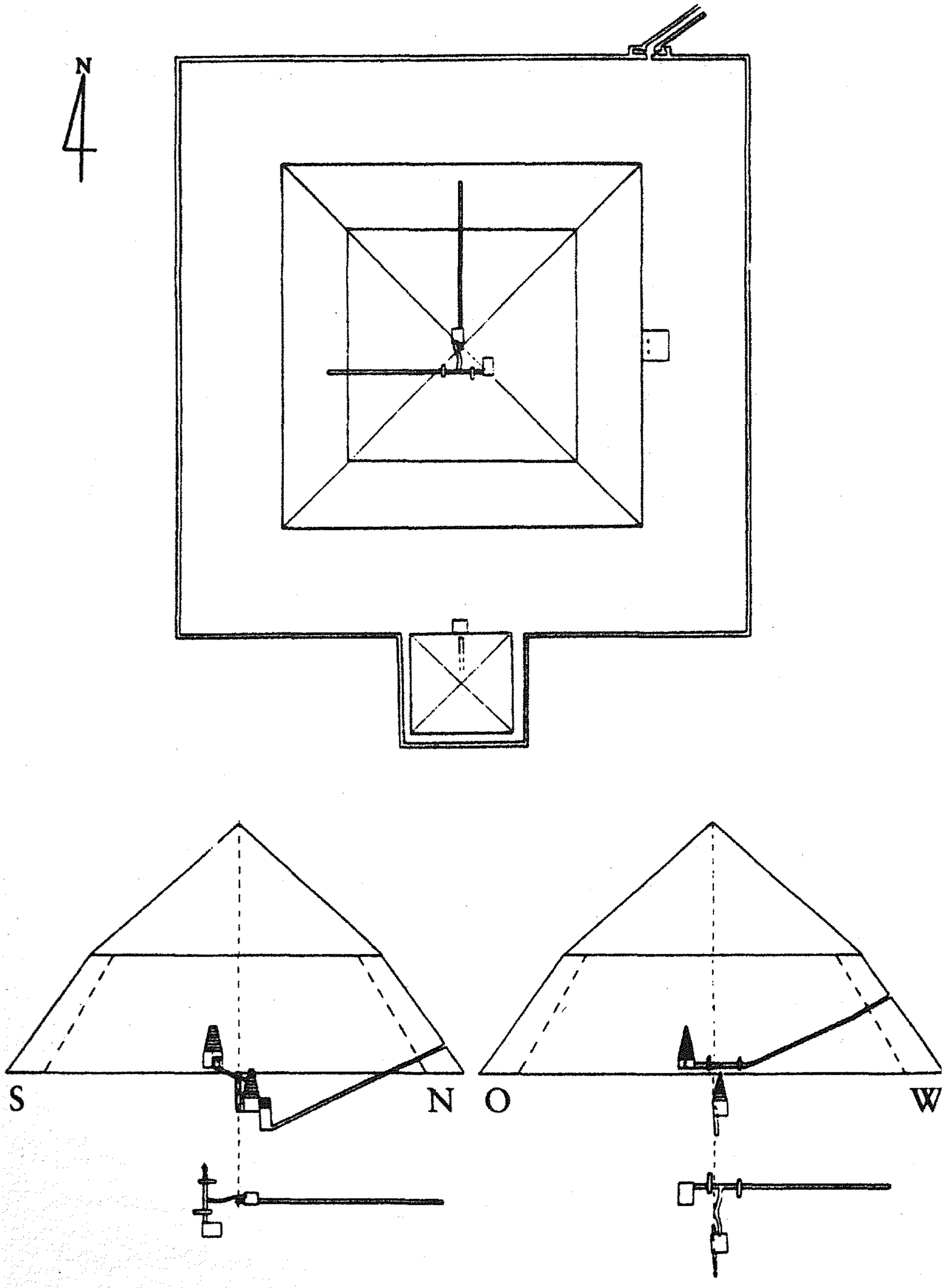

■ مخطط للهرم المنحني من الداخل.

استمرت تلك الأصوات لمدة 10 ثوان، ثم توقفت، والتفسير المنطقي الوحيد لها والذي اقترحه أحمد فخري هو وجود بعض الأجزاء داخل الهرم لم يتم الكشف عنها بعد، والتي تتصل بخارج الهرم.

وقد قمت باصطحاب 12 طالبًا من طلبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة في محاولة لاكتشاف الحجرات الداخلية لهذا الهرم الفريد، فقمنا بالدخول من المدخل الشمالي عبر ممر بطول 80م (263 قدما) وارتفاع 1.10م (3.6 قدم) فقط. وكان علينا الانحناء كي نستطيع الوصول إلى الحجرة المقبية الأولى، ومنها تسلقنا مسافة 6.25م (20.5 قدمًا) بواسطة مجموعة من الدرجات الخشبية المتداعية لنصل إلى أرضية حجرة الدفن السفلية. وبها عثرنا على ممرات تبدأ من الجدار الجنوبي تؤدي إلى بئر ولكنها لا تستمر. ورأينا ممرًّا آخر بطول 12م (39 قدمًا) يؤدي إلى أرضية ممر آخر يسير من الشرق للغرب. فاتجهنا ناحية الغرب وعثرنا على حجرة الدفن الثانية، ورأينا جذوع الأرز التي أحضرها سنفرو من بيبلوس والتي كانت في وضع جيد. وشعرنا بهواء بارد يأتي من الخارج مما يؤكد أن بالهرم ألغازًا تحتاج للحل.

وعلى الرغم من وجود مشاكل هندسية بالهرم المنكسر، إلا أنه قد تم اكتماله هو والمجموعة الهرمية كما تم كساؤها بالحجر الجيري الأبيض الجيد. ولهذا السبب فإن بداخلي قدرًا من الشكوك حول صحة تلك التفسيرات الشائعة، حيث أرى أنه كان مقدرًا منذ البداية نقل كل من الهرم المنكسر والهرم الأحمر إلى دهشور.

وأيًّا كانت الأسباب وتتابع الأحداث، فقد قام الملك سنفرو في العام 29 من حكمه باختيار منطقة أخرى مناسبة على مسافة قصيرة شمالي هرمه المنكسر، وبدأ في بناء هرمه الرابع ذي ميل بزاوية °43 درجة. وقد خطط له ليكون أكبر هرم في عصره بمقاييس 220م (722 قدمًا) لطول كل جانب من جوانبه وارتفاع نحو 105م (345 قدمًا). وأطلق على هذا الهرم مثل هرمه السابق "الهرم المشع"، في حين أطلق عليه علماء المصريات اسم "الهرم الأحمر"؛ لأن الأحجار التي بنى بها لونها مائل للحمرة، وذلك بمادة المافت التي كان يحضرها المصريون من الصحراء الغربية. وفي تلك الفترة، كانت تقنية بناء الهرم أكثر تطورًا وهو ما جعل عملية بنائه أسهل.

وقد قام العالم الألماني راينر شتادلمان Rainer Stadelmann بدراسة هذا الهرم لعدة أعوام وقام بالعديد من الاكتشافات الرائعة. فقد عثر بالركام الواقع حول قاعدة الهرم على قطع من الكساء الأصلي للهرم والمصنوع من الحجر الجيري ويضم جرافيتي كتبها العمال الذين كانوا يقومون ببناء الهرم. وتلك القطع غاية في الأهمية، خاصة أنها تتعلق بتواريخ ملكية،

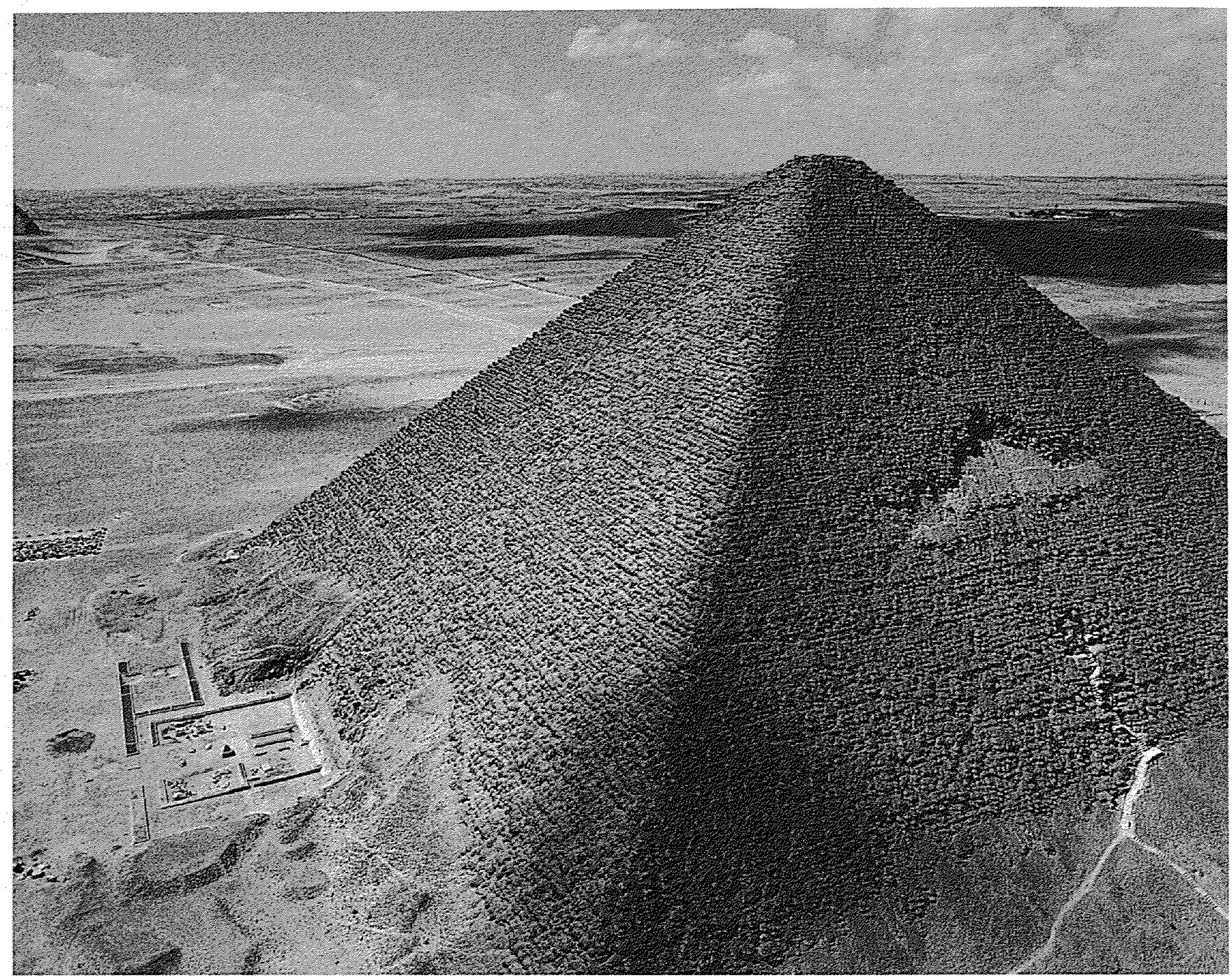

وهو ما يمكننا عن طريقها إعادة تكوين المدى الزمني لبناء الهرم، كما أنها تمنحنا معلومات عن حكم الملك.

وأعلى تأريخ عثر عليه شتادلمان لحكم الملك هو الإحصاء 24، والذي يوازي العام 45 أو 46 من حكمه، حيث كانت الحكومة المصرية تقوم بإعداد إحصاء للماشية كل عامين وكان الملوك في العصور المبكرة يؤرخون عصورهم حسب هذا الإحصاء. ومع ذلك، فقد عرفنا قيام الملك سنفرو بإحصائيات سنوية في عهده، وهو ما يجعل حساب عصره على أساس السنتين أمرًا يحتاج إلى المزيد من الدراسة. كما عثر شتادلمان على قطع من الهريم الذي كان يوضع على قمة الهرم. وهذا الهريم كان من الحجر الجيري غير المنقوش ويعتبر أقدم هريم عثر عليه حتى الآن. وكانت الهريمات بالعصور المتأخرة ذات صناعة أكثر تطورًا ومنحوتة من أحجار أجود، ومكسوة من مواد أغلى كالإلكتروم ويحتمل أن تكون منقوشة.

■ الهرم الأحمر بدهشور.

وهناك بقايا من معبد الوادي الخاص بهذا الهرم، إلا أنه لم يتم الكشف عنه بشكل دقيق، كما توجد آثار للطريق الصاعد غير المكتمل والذي يربط بين هذا المعبد والهرم الرئيسي. أما المعبد الجنائزي الواقع أمام الجانب الشرقي للهرم أكبر في الحجم من مقاصير ميدوم والهرم المنكسر، ولكن يبدو أنه قد تم إنهاؤه على عجل ربما بسبب موت الملك.

ويقع مدخل الهرم بمنتصف الجانب الشمالي، حيث يبدأ بممر هابط يصل حتى مستوى الأرض، يليه ممر أفقي يؤدي إلى حجرات جانبية مسقوفة بسقف مقبي على طراز الكوربيل، ثم يصعد ممر آخر عبر الجدار الجنوبي، حيث يؤدي إلى حجرة الدفن الواقعة بقلب الهرم. ووجود حجرة الدفن فوق سطح الأرض يحمل رمزية اعتبار سنفرو مرتبطاً برب الشمس رع الذي يشرق في أفقه، وهو ما ظهر بشكل أكثر وضوحًا بهرم ابنه خوفو الذي حمل هرمه اسم "آخت خوفو"؛ أي أفق خوفو.

وفي الوقت نفسه إبان تشييد الهرم الأحمر، أرسل سنفرو فريقًا إلى ميدوم لتحويل شكل هرمه هناك من هرم مدرج إلى هرم حقيقي عن طريق ملء تلك الدرجات بكساء مائل. حينها ومع اكتمال هرم ميدوم، فقد اكتمل عقد مشاريع سنفرو، حيث بدأ بهذا الهرم عصره وانتهى به. فقد أقام سنفرو عددًا من المباني أكثر من سابقيه، ولم يستطع أحد أن يكسر رقمه القياسي (رغم محاولات ابنه خوفو) حتى نهاية الدولة القديمة.

الفصل الرابع

بلاط سنفرو

ابتهج سنفرو من الألاعيب المرحة لابنه الصغير خوفو .. فلم يتعد عمره الخامسة، ومع ذلك فقد كانت له شخصيته الخاصة.. فكان صوته المرتفع الحاد يجعل مربياته يهربن في محاولة لتفادي حالة الغضب التي تزعج آذان الملك.. إلا أن الأب الهرم قد ضحك ببساطة شاكراً الأرباب على إرسالهم تلك الهدية الغالية.. ذلك الابن الذي سيخلفه على العرش العظيم.. فقد رأى أن زوجته الملكة حتب حرس قد بلغت من العمر الكثير كي تنجب طفلاً آخر بعد موت ابنهم الأول.. إلا أنها كانت رائعة وجميلة كما كانت من قبل.. وكان الولد أعجوبة في القوة والسرعة.. إلا أنه كانت له القدرة على الجلوس هادئًا لساعات ليستمع للموسيقى أو ليرسم. وقد أظهر ميلاً إلى الدراسة وهو ما يعد أمراً هامًّا له كأمير ملكي.. بالفعل، ولده هذا سيكون ملكًا عظيماً يومًا ما..

عاش سنفرو وبلاطه بالقرب من مواقع أهرامه، ففي البداية أقام بميدوم، ثم بدهشور. وكانت البلاد تحكم من القصر الواقع بالمنطقة المركزية، تلك النقطة التي توحد مصر العليا والسفلى. ويمكن أن نتخيل سنفرو في لقاء مع وزيره نفر ماعت كي يتسلم معلومات حول ثروات البلاد، وحال رعيته، وأخبار عن حملاته الأجنبية وبعثاته التجارية، بالإضافة إلى تقارير حول العمل الجاري بمجموعاته الهرمية.

وحتى الآن، لم نعثر إلاَّ على أساسات قصور الدولة القديمة، إلا أن بقايا قصور الدولة الحديثة تخبرنا أن الجدران كانت مزينة بمناظر بديعة ملونة، والتي ربما تمثل الملك وهو يقمع أعداءه، وأخرى تمثل صناعًا يقومون بصناعة مراكب خشبية ضخمة، أو القوارب الملكية وهي تبحر إلى بعض المدن الأجنبية، مثل بيبلوس بالإضافة إلى تعبد الملك إلى آلهة مصر المختلفة كي يحموه ويعاونوه في حكم البلاد. وقد كانت الألوان في غاية النضارة والوضوح والتي كانت تمثل الأسلوب الفني السائد في مقابر النبلاء بعهد الملك أيضًا.

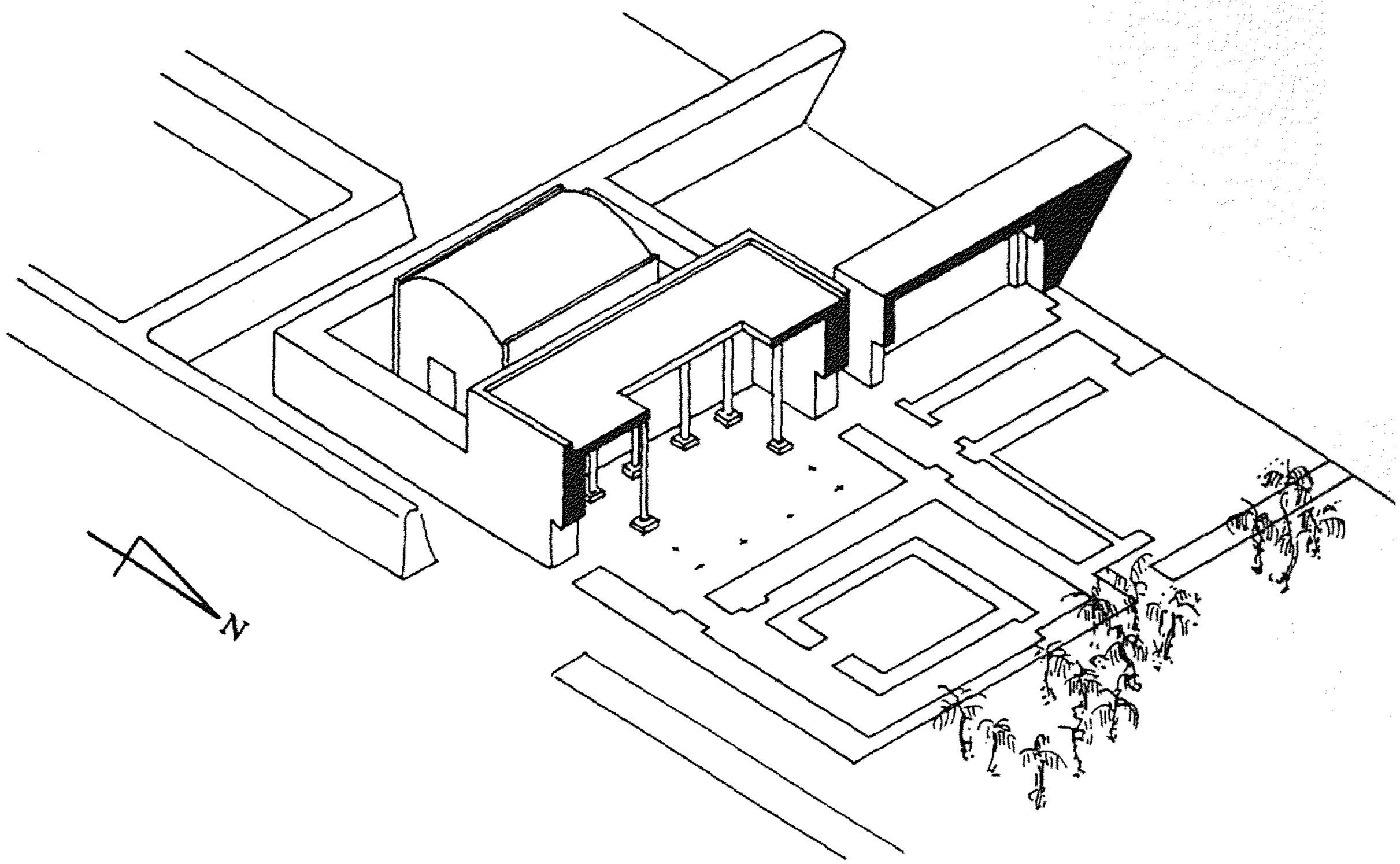

وتشير مناظر مقابر النبلاء إلى طبيعة الحياة في مصر القديمة خلال تلك الفترة حيث إنها توضح مجموعة من النشاطات: مثل قيام النجارين ببناء السفن وتَفَقُّدِ المزارعين لأراضيهم، وظهور صيادي السمك وهم يسحبون شباكهم، بالإضافة إلى مناظر حملة القرابين وهم يحملون الحيوانات أو الطيور، بالإضافة إلى الأطباق الكبيرة التي تضم كميات من الطعام أو أواني الجعة والنبيذ. وقد عثر على مثل تلك المناظر في تاريخ الفن المصري بمقابر نبلاء الملك سنفرو، وهي محاكاة للمناظر التي كانت موجودة بمعبد الملك الجنائزي، حيث تصور ممثلات الأقاليم أو المقاطعات وهن يحملن خيرات تلك الأقاليم كي تقدم خلال الشعائر.

ومن خلال مناظر تلك المقابر، استطعنا التعرف على عائلة الملك سنفرو وكبار موظفيه، فقد عرفنا بعضًا من أسمائهم وألقابهم، والتي من خلالها عرفنا طبيعة عملهم وماذا كانوا يصنعون. ومازلنا نتعامل مع عمليات الحفظ والاكتشاف بمحض الصدفة، في حين أن المعلومات نفسها لا تزال غامضة. فعلى سبيل المثال، حمل الوزير نفرماعت لقب "ابن الملك"، ومع ذلك فإن ترجمتنا للقب ابن لا تأتي بمفهومه الدقيق، حيث كان يستخدم خلال

■ تخيل لشكل المعبد الجنائزي للهرم الأحمر.

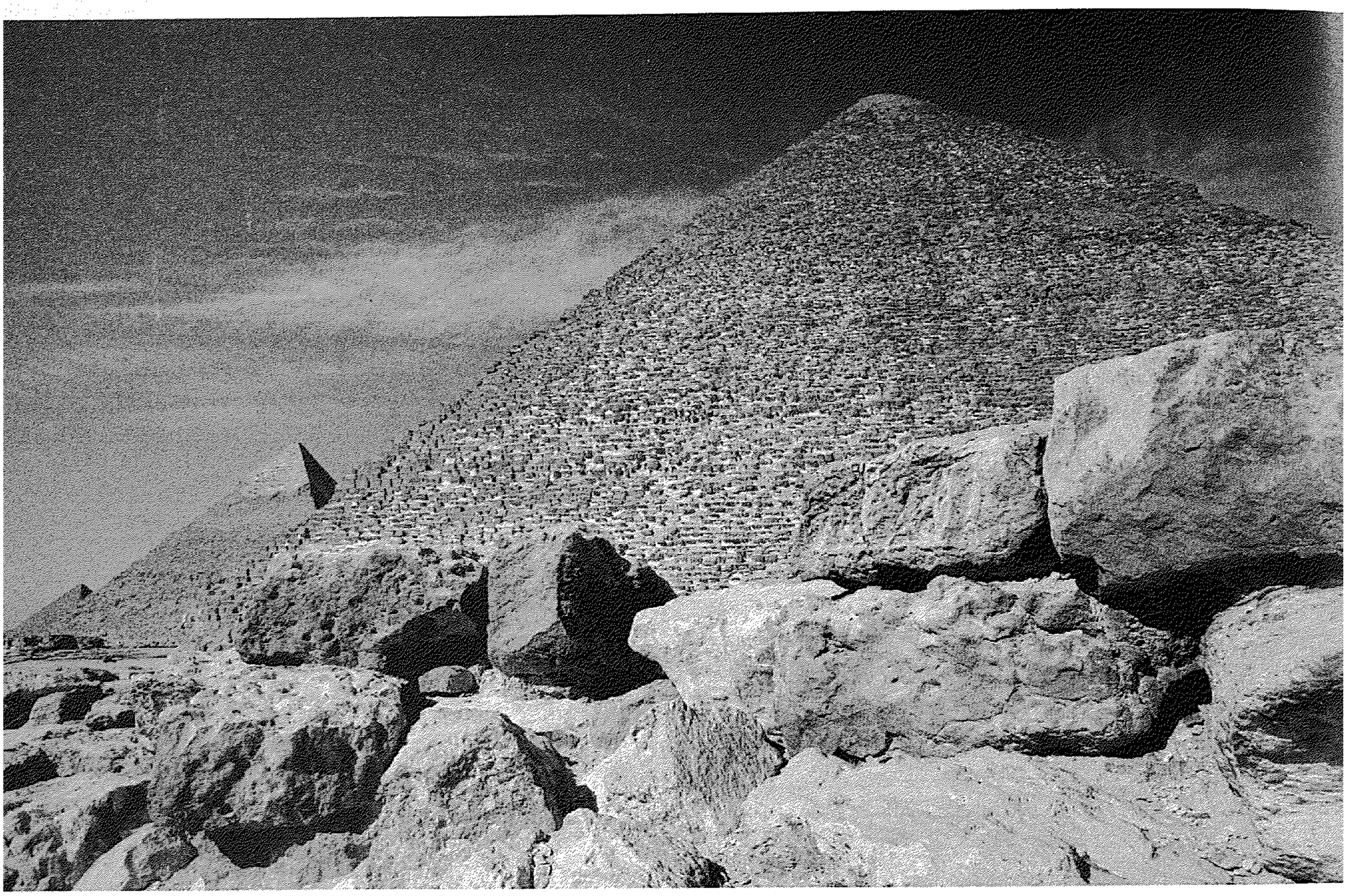

تلك الفترة أيضًا للتعبير عن الحفيد الملكي وهو ما يمكن أن يشككنا في نسب هذا الوزير للعائلة الملكية. وعلى أي حال فإننا لا نعرف أي شيء عن لقب والده؛ لذا فإننا نحدد كونه ابن الملك حوني أو سنفرو، طبقًا لتأريخ مقبرته وما يمكن تخمينه حول عمره وارتباطه بسنفرو. وقد تزوج نفر ماعت من امرأة تدعى "أتت" وأنجبا ولدًا أَسْمَياهُ "حم إيونو" والذي سيصبح ذا شأن عظيم في عهد الملك اللاحق خوفو، وهو ما يدعونا للشك في أن نفر ماعت كان أخا الملك سنفرو أو ابن عمه.

ومن خلال قياس عصري كل من سنفرو وخوفو، فيبدو أن خوفو قد ولد في فترة متأخرة من حياة أبيه؛ لذا فمن المحتمل أن يكون نفر ماعت بمثابة أخ أكبر له. وهذا سيأخذنا لواحد من الأسئلة الصعبة، والذي لم يجب عنه علماء المصريات بشكل واضح، كيف تمت عملية الخلافة على العرش؟ إذا كان نفرماعت هو الأخ الأكبر لخوفو، فمن المحتمل أن يكون هو الأجدر بأن يكون هو الملك. ويعتقد أغلب علماء المصريات أن حكام الدولة القديمة قد اتخذوا أكثر من زوجة في الوقت نفسه (مثلما كان بالدولة الحديثة) في الوقت الذي تحصل فيه إحدى الزوجات

■ الهرم الأكبر– هرم الملك خوفو– هضبة الجيزة.

لقب الزوجة الرئيسية. وتقتضي التقاليد بأن الابن الأكبر لتلك الزوجة هو الذي يخلف العرش؛ لذا فيبدو أنه كان للملك ابن كبير من زوجة ثانوية والذي لم يتمكن من الوصول إلى العرش. وفي حقيقة الأمر، فإننا لا نستطيع الإجابة على العديد من الأسئلة مثل ذلك السؤال، حيث ما علينا هو مجرد وضع الافتراضات المبنية على السيناريو الأكثر منطقية.

ونعرف العديد من الشباب الذين تربوا في بلاط سنفرو، وخدموا ابنه بالإضافة إلى العديد من الأميرات اللاتي أصبحن ملكات في عهد الملك الجديد. ومن بين هؤلاء الرجال نعرف المدعو "رع حتب"، والذي حصل أيضًا على لقب "ابن الملك" وهو صاحب المقبرة الشهيرة بميدوم، ومن بين ألقابه أيضًا كبير الرائين بهليوبوليس (وهو لقب كبير كهنة عقيدة الشمس) والمشرف على الجيش (وهو لقب عسكري). وقد تزوج رع حتب من الأميرة "نفرت"، وقد دفنا معًا بمقبرة بميدوم، ولهما تمثالان في غاية الروعة من الحجر الجيري الملون، واكتشفا بإحدى حجرات المقبرة. ويبدو أن رع حتب كان من جيل نفر ماعت نفسه مما يدعو للشك أنه أيضًا كان ابنًا للملك حوني أو ابنًا للملك سنفرو نفسه. أما

■ تمثالا رع حوتب ونفرت– حجر جيري ملون– المتحف المصري.

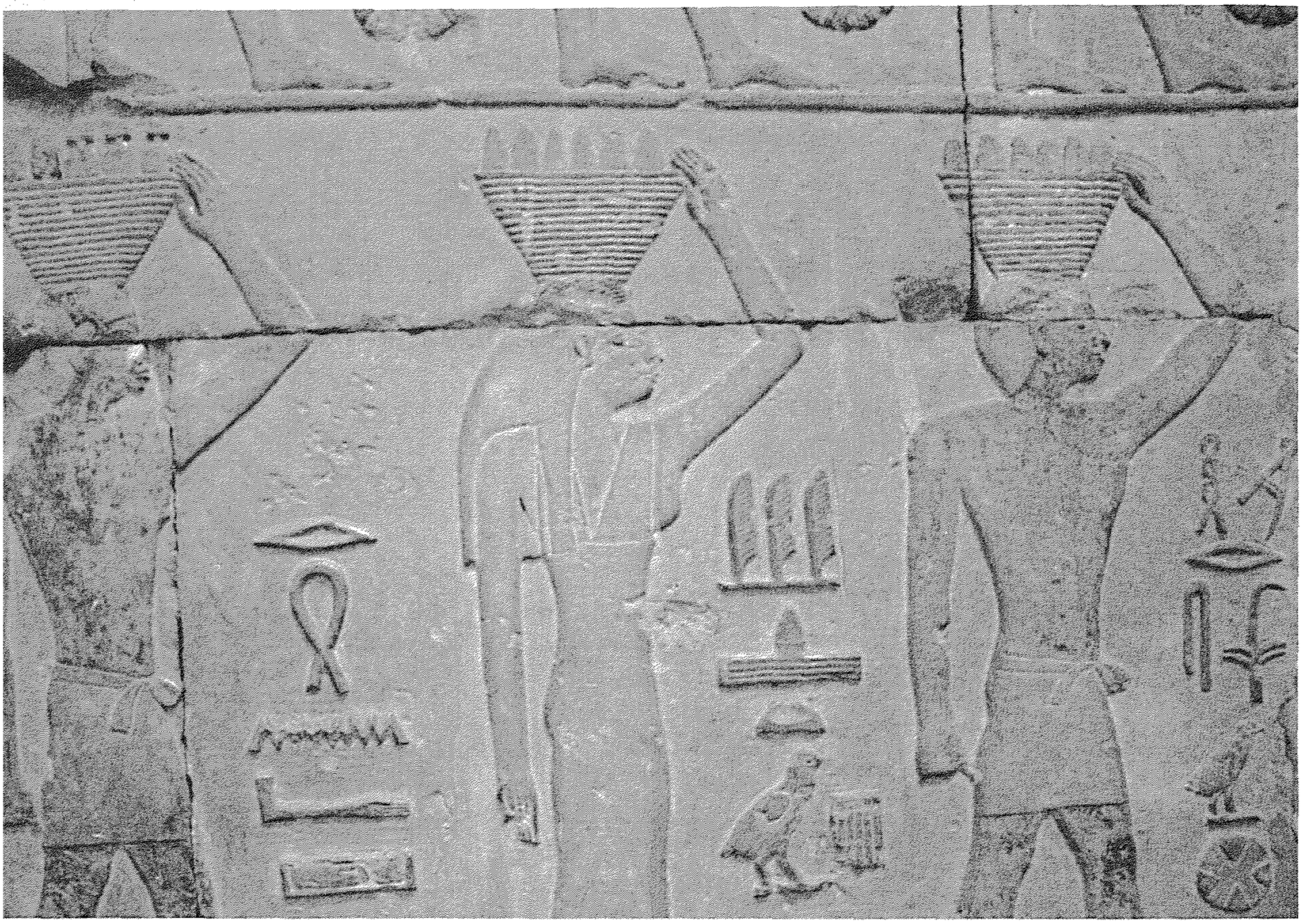

الأميرة "نفرت" فقد حصلت على لقب " المعروفة لدى الملك " وهو لقب اتخذه النبلاء والنبيلات في مصر القديمة.

وقد دلتنا العديد من المقابر وبقايا التماثيل الموجودة بدهشور – والتي تحيط بكل من الهرم الشمالي والجنوبي– على معظم أفراد العائلة الملكية على الرغم من أن علاقاتهم بسنفرو غير واضحة تماماً، فقد عثر على العديد من الآثار والبقايا والتي تخص مجموعة من الرجال والذين حصلوا على لقب "ابن الملك"، أو حتى لقب "ابن الملك من صلبه"، وإن لم تساعدنا كثيراً. فلابد من البحث عن تاريخ المقابر، حتى يتسنى لنا التكهن بعلاقة كل شخص من هؤلاء الأفراد بالأسرة. وكان أهم أبناء سنفرو هو بالطبع خوفو والذي خلفه على عرش البلاد، ومع ذلك فإنه لم يرد ذكره في أي من آثار والده؛ لذا فإن معلوماتنا حول هذا الملك العظيم تأتي من آثار عصره أو العصور التالية.

عرف الملك سنفرو بالتواضع والتقوى الممزوجة بالقوة والحزم، كما اشتهر بالذكاء الحاد وحب الاستطلاع والعلم، فكان يحب الاستماع إلى الآخرين، كما كان سخيًّا على من حوله. ولحسن الحظ أن لدينا قصتين قديمتين

■ مجموعة من حاملي وحاملات القرابين– المتحف المصري.

تقدمان لمحات شخصية –وإن كان مشكوكًا في صحتهما– عن هذا الملك الفذ. وكلا القصتين يحتمل أنه قد تم تأليفهما إبان الدولة الوسطى؛ أي بعد نصف ألفية من وفاة سنفرو. وتعرف القصة الأولى باسم نبوءة نفرتي.

وتبدأ القصة بمجموعة من كبار رجال الدولة المعروفين باسم " قضاة المقر"، والذين قد أتوا إلى القصر لتحية الملك، وربما لتلقي أوامره لهذا اليوم. وبعد رحيلهم جميعًا، التفت سنفرو لحامل أختامه وطلب منه أن يعيدهم مرة أخرى، وعندما عادوا (زاحفين على بطونهم إليه كنوع من التبجيل)، طلب منهم أن يبحثوا عن شخص بارع في الكلمات يمكن له أن يسليه، وهنا أشار جميع الواقفين إلى شخص يعمل ككاهن للإلهة باستت يدعى "نفرتي"، فأمر سنفرو بإحضاره على الفور.

وعندما أتى الكاهن إلى القصر وقدم التحيات لملكه، قال له الملك: "تعال يا صديقي نفرتي..أخبرني بكلمات بديعة وعبارات منتقاة يمكن أن تسلي جلالتي.."، فسأله الكاهن إن كان يحب أن يسمع قصة ما عن الماضي أو نبوءة عن المستقبل، فاندهش الملك ورد سريعًا مطالبًا بقصة عن المستقبل، وحمل أدواته الكتابية، حيث لفافة البردي ولوحة الحبر والبوصة ليكتب ما سيقوله نفرتي بيديه.

و لم تكن القصة التي رواها نفرتي لها علاقة وثيقة بتلك القصة، حيث كانت بمثابة نبوءة حول المستقبل وربما قد كتبت للتأكيد على شرعية حكم الملك أمنمحات الأول، أول ملوك الأسرة 12. إلا أن القصة ككل شائقة للغاية، وتقدم لنا صورة عن ملك فطن مثقف وحاكم قوي، والذي تأتي إليه رعيته زاحفة على بطونها، ذلك الرجل القوي الذي يقف وسط جميع أعماله الإنشائية وحروبه شاعرًا بالملل!!

أما القصة الأخرى فهي عبارة عن مجموعة من الروايات (للأسف غير كاملة) والتي تعرض لملوك وأمراء من الأسرة الرابعة ببردية تعرف ببردية "وستكار". وتدور أحداث القصة داخل قصر الملك خوفو، والذي كان مولعاً بالقصص التي يرويها أبناؤه. وأولى تلك القصص والتي تظهر كاملة جاءت على يد الأمير باوإف رع الذي حكى عن حدث في عهد الملك سنفرو.. ففي يوم من الأيام كان الملك حزينًا وسأل كل من حوله عن وسيلة تزيل هذا الهم؟ إلا أنه لم يستطع أحد أن يساعده إلا رجل واحد يدعى "جاجا إم عنخ" يعمل كاهنًا ومرتلاً في المعبد، وعندما قدم هذا الرجل إلى الملك، قال له سنفرو: "يا أخي.. لقد

أحضرت جميع الناس إلى القصر كي أبحث عن طريقة تجعلني سعيدًا.. ولكن لم يساعدني أحد"!

فاقترح الكاهن بأن يقوم الملك برحلة في قارب داخل بحيرة ويستمتع بالجو النقي وخيوط الشمس المشرقة، ومن أجل زيادة متعة الملك طلب بأن يقوم بالتجديف مجموعة من فتيات القصر الجميلات كي يزدن من ترفيه الملك، فوافق الملك قائلاً: "حقًّا.. سوف أقوم بتلك النزهة.. أحضروا القارب ذا العشرين مجدافًا المصنوعة من العاج المكسو بالذهب.. وأحضروا عشرين فتاة من العذارى ذوات أجساد وصدور وضفائر بديعة للتجديف.. أحضروا لي عشرين شبكة وأعطوا للفتيات عشرين شبكة بدلاً من ملابسهن..".

في الوقت الذي كان الملك سعيدًا، إلا أنه في وسط البحيرة سقطت حلية قائدة الفتيات، فتوقفن عن التجديف هي وزميلاتها، فسألهن الملك عن السبب؟ فأخبرته الفتاة، فقال لها إنه سوف يعطيها واحدة أخرى، إلا أنها رفضت وأصرت على حليتها، فأمر الملك الكاهن ليقوم ببعض الحركات السحرية لشق مياه البحيرة والبحث عن الحلية حتى تم العثور عليها في قاع البحيرة، حينها سعدت الفتاة بشدة وأمضى الملك بقية نهاره سعيدًا بعد أن كافأ هذا الكاهن على مساعدته.

والصورة التي حملتها تلك القصص هي صورة ملك متواضع، الذي ينادي أحد المرتلين بـ"أخي"، وعلى درجة من الحساسية والتي تجعله يلبي طلب امرأة والتي ليست حتى من البيت الملكي. ومن الواضح أنه كان يحب المرح والمتعة. وسواء أكان هذا انعكاسًا للحقيقة أم لا، فإن تلك القصص تكشف أنه ظل مذكورًا وهو ما يجعل بعضًا منها حقيقيًّا. ومن خلال جميع أعماله البطولية، يجب أن يكون هذا الرجل ذا طاقة عظيمة! فليس من الغريب أنه قد بنى أربعة أهرامات، وأنه أيضاً قد عُبِدَ في فترات أخرى من التاريخ، ويعتبر مؤسس هذه الأسرة العظيمة وهي موضوع هذا الكتاب.

الفصل الخامس

مات الملك

كان القصر صامتاً ممتلئاً بالحزن.. فقد خرج النفس الأخير من جسد الملك.. والآن حان وقت الإعداد للجنازة.. كما تم الحفاظ على الترتيب الصحيح للأشياء حتى تعود الروح مرة أخرى لجسده.. وقد التقى كل من خوفو ونفرماعت بحجرة الموت لتلاوة الصلوات الصحيحة على جسده.. وكانت الستون يوماً القادمة هي الحاسمة لرحلة الملك الناجحة لعالم المعبودات.. وقد أخذ الجثمان إلى "الوعبت" وهي الورشة الجنائزية، حيث بدء عمل الاستعدادات لإرسال المعبود للحاق بأخوته بالسماء..

توفي الملك سنفرو فيما بين الأعوام 46 و54 من حكمه، وذلك قبل أن يكتمل بناء هرمه الأحمر. وبمجرد وفاته أخذ جسده إلى خيمة التطهير المعروفة باسم "وعبت"، وهناك تمت عملية التحنيط، حيث قام كهنة الملك بعمليات متطورة في ذلك الوقت، فقاموا بإزالة رئتيه وكبده ومعدته وأمعائه؛ من أجل الحفاظ على الجثمان، ثم تم لف الجثمان بلفائف متعددة من الكتان. وبعد إتمام تلك العملية، تم أخذ مومياء الملك من مكان التحنيط إلى مكان التطهير؛ حيث تم تطهير المومياء بالبخور، وبعدها بدأت رحلة الملك الأخيرة إلى المقبرة، تلك الرحلة المثيرة، حيث يتجمع بها المغنون والراقصون والكهنة الذين يتلون الصلوات على مائدة ضخمة من القرابين كما حضر الجنازة زوجة الملك الرئيسية الملكة حتب حرس وخليفته على العرش خوفو، وهم يراقبون النائحات وهن يبكين ويصرخن ويمزقن ملابسهن ويقطعن شعورهن من شدة الحزن على وفاة الملك.

وقد اعتقد العديد من الباحثين أن الملك سنفرو قد دفن في الهرم الأحمر؛ حيث عثر على بقايا عظام تملأ إحدى حجرات هذا الهرم الشمالي، وكان بعض من تلك العظام آدميًّا، من بينها أجزاء من جمجمة مع أدلة على وجود بعض عمليات تحنيط مثل العثور على لفائف من الكتان الجيد المستوى والمنقوع في سائل الصمغ، وكانت جميع البقايا الآدمية تشير إلى أنها كانت تخص رجلاً قد مات في أواسط عمره، وهو ما يتضح من حالة أسنانه. ومن أهم الملاحظات الملموسة بالهيكل العظمي أن هناك إصبعين من أصابع القدم صناعية.

وبالإضافة إلى ذلك عثر على عظام حيوانات مثل ثور أو بقرة وجمل وحمار وكلب، كما عثر على قرن وحافر ربما يكون خاصًا بماشية ومتعلقًا به كتان خشن. وعظام تلك الحيوانات ربما كانت جزءًا من الدفن الأصلي.

وأعتقد أن تلك العظام لا تخص الملك سنفرو، فأرى أنه قد دفن في هرمه المنكسر، حيث هناك تم التركيز على عقيدته، ويرقد هناك داخل إحدى الحجرات السرية التي لم تكتشف بعد. ومن أجل الحفاظ على سر كهذا، فإنه لم يخرج عن مجموعة قليلة جدًّا من الأشخاص المهمين مثل الملك خوفو ابن الملك المتوفي، والوزير نفر ماعت، وربما كل من الأميرين الشابين عنخ حاف وحم إيونو اللذين أصبحا وزيري خوفو فيما بعد. وربما قد تم إغلاق حجرة الدفن بكتل ضخمة من الجرانيت حتى لا تتحرك أبدًا، وكي تضلل لصوص المقابر عن مكان دفن الملك الحقيقي ويبحثون عنه في هرمه الأحمر بدهشور.

وقد قام الملك خوفو بالاشتراك في مراسيم الجنازة والدفن بنفسه، وذلك في محاكاة لدور حورس على الأرض مع أبيه المتوفي، وهو يؤدي دور رع وأوزير، في حين أدَّت الملكات دور المعبودات حتحور ابنة رع وزوجة حورس، وكل من إيزيس ونفتيس وأخوات أوزير وكبيرات النائحات عليه. وبمجرد إتمام طقسة فتح الفم للمتوفي – وهي الطقسة التي تمنح الحياة بطريقة سحرية لمومياء الملك – فإنه يتم عمل طقوس القرابين كما

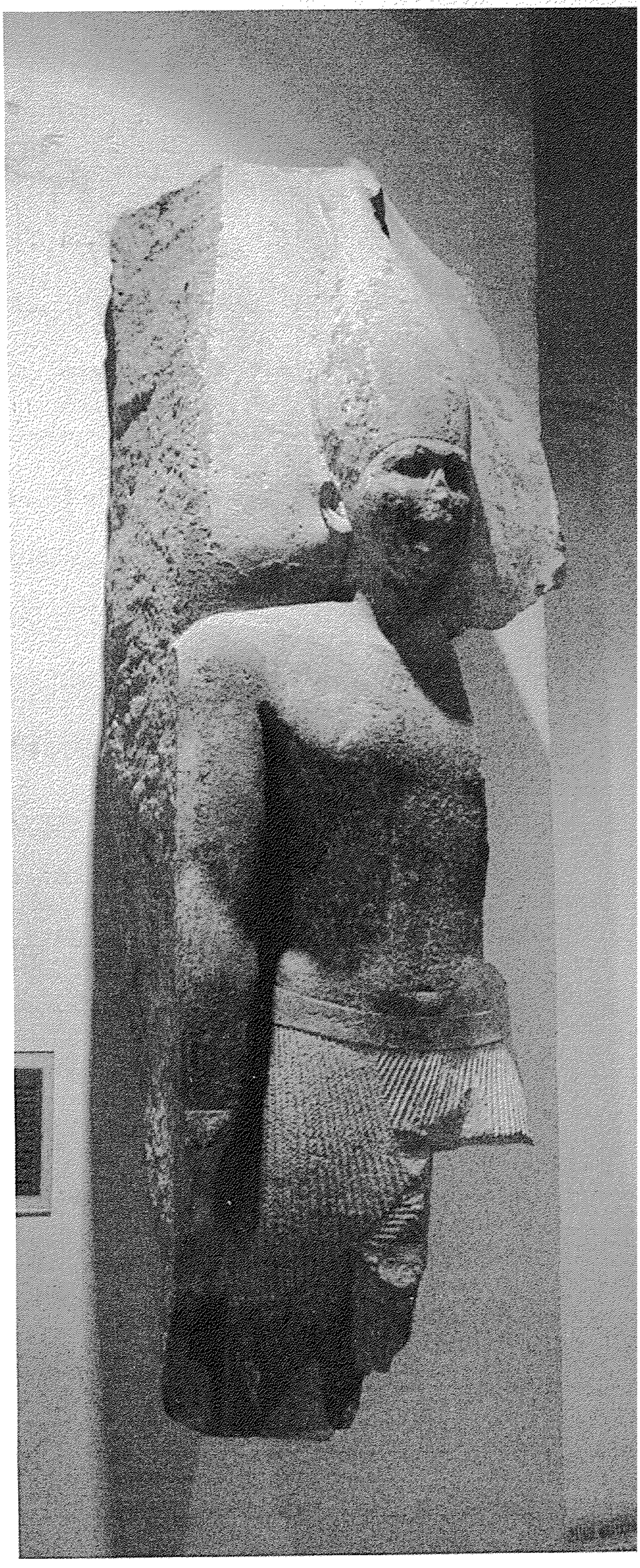

■ تمثال الملك سنفرو – حجر جيري ملون – المتحف المصري.

أنها تستمر على يد الـ "حم نثر hmw-ntr" أو خدمة الإله، والتي تتركز وظيفتهم على رعاية احتياجات الإله (وهو هنا سنفرو) والاحتفال بطقوسه والتي تقام بمعبده الجنائزي.

وقد استمرت عقيدة سنفرو حتى الدولة الوسطى؛ أي سبعة قرون بعد وفاته، حيث تركزت عند هرمه المنكسر بدهشور. وفي معبد الوادي عثر على تماثيل لأفراد ومجموعة من اللوحات ومذابح. وقد تمت بعض التعديلات بالمقصورة الموجودة بالجانب الشرقي للهرم على يد مجموعة من الكهنة اللاحقين، كما عثر على مجموعة من مذابح البخور من الدولة الوسطى مهداة للملك سنفرو تركتها عائلة من الكهنة. أما عن المقصورة فمن المحتمل أن ترجع إلى العصر البطلمي، حيث قام مجموعة من الكهنة بإحياء عقيدة الملك القديم، والذي توفى قبلهم بـ2000 سنة. وقد قام العديد من ملوك الأسرة 12 ببناء أهراماتهم بالقرب من آثار الملك سنفرو، كما أنه يوجد العديد من مقابر الدولتين القديمة والوسطى بهذا الموقع. ومع شهرة الملك الكبيرة وتزايد أعداد المريدين له، فقد سمي العديد من أطفال الدولة الوسطى بأسماء ترتبط باسم سنفرو.

وقد اعتبر الملك سنفرو – ومعه كل من المعبودة حتحور والمعبود سوبد– راعيًا حاميًا لمناجم الفيروز بسيناء. وقد قام الملك أمنمحات الثالث سادس ملوك الأسرة 12 بذكر اسم الملك سنفرو في نقش تركه بوادي مغارة بسيناء، وقد ظلت سمعة سنفرو كملك طيب مستمرة حتى الدولة الحديثة، حيث تم إحياء ذكراه على يد أبناء رمسيس الثاني، على يد كتابات المؤرخ الإغريقي هيرودوت، والذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد.

وكانت الإبداعات والتطورات التي حدثت بعصره قد مهدت إلى ازدهار المجد والقوة في عصر خليفته الذهبي الملك خوفو.